

أنيس منصور



أنيس منصور

بلاد الله خلق الله

كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

مطابع الأخبار



الى أى مكان ..

في نهاية الليلة ٤٢٥ من ألف ليلة وليلة تتحدث شهر زاد الى الملك شهريار عن رجل شيال اسمه السندباد الشيال . وانه كان فقيرا ولذلك قرر أن يحمل ملابسه وينتقل الى أى مكان .. وانتقل من بيته الى بيت آخر لايبعد كثيرا عنه .. ووضع السلة التي يحملها على كتفه فوق مصطبة .. ثم جلس . وأحس أن نسيما عليلا وشذى جميلا يخرج من فتحة الباب .. فاتجه الى الباب بأنفه وشعر بالسعادة .. وأدرك شهر زاد الصباح !

وشهر زاد لم تكمل القصة لأنها ـ كعادتها ـ تريد أن يظل شهريار ملهوفا على القصة الجديدة .. وبذلك تطيل عمرها ليلة بعد ليله ..

ولو كنت من شهريار لاكتفيت بهذا القدر .. فهذا الرجل سندباد قد تحرك مسافة قصيرة فاستحق على هذه الحركة المتواضعة بعض النسيم والعطر .. وهذا يكفي مكافاة على انه انتقل من مكان الى مكان .. أو فكر في أن يترك الارض التي ضاق بها .. أو البيت الذى مل الاقامة فيه .. انني أرى أن هذه الليلة التي لم تكملها شهر زاد قد كملت .. فالرجل انتقل . وجلس وشم الهواء والرائحة .. وهذا يكفي !

وفي كل مرة ينتقل سندباد من مكان الى مكان يلقى المكافاة السخية على ذلك .. مهما كانت مخيفة أو متعبة فهي لذيذة .. ويبدو أن سندباد لم يكن يتعذب كثيرا ، كأنه يعلم انه ممثل



فى قصة .. أو بطل مسرحية .. فكل مايعمله هو تمثيل فى تمثيل .. وهو من المؤكد محروم من الشعور الحقيقى بكل ماهو جديد .. محروم من الخوف الحقيقى .. والعذاب اخى .. وهو يرى أن كل جديد بلاء .. وان كل مغامرة كارثة .. وعلى الرغم من انه (يمثل) فى ألف ليلة وليلة ، فانه يريد أن يفرغ منها . تماما كما لو كان مغامرا حقيقيا تعذب كثيرا وينشد الراحة بعد ذلك !

انتى لا أحسد سندباد ..

فهو لم يستمتع بالتجربة الاولى .. والمفاجاة الاولى .. والفزع الذى لاقرار له .. والحيرة التى لاحدودلها .. ولا أحسده ايضا .. فقد تمنيت أن يطول كل شىء .. فلا شىء يخيف .. ولم يكن يعذبنى فى رحلاتى الكثيرة الا التعب .. الذى يجعلنى عاجزا عن احتمال الخوف والصدمة والمفاجاة .. ولو كانت لى قوة سندباد وعضلاته وشهيته المفتوحة الى الطعام وقدرته الفذة على أن ينام فى اى مكان وفى اى وقت لشربت مياه المحيط .. لكى أعبره بعد ذلك ماشيا على قدمى .. ولنقلت الجبال وردمت بها الوديان لكى أتمشى على مهلى من دولة الى دولة ..

انه لم يتعذب .. ولم يسعد بالراحة بعد العذاب .. انه لم يعش ، وانما كان يمثل دورا فى الحياة !

ولم يعجبنى من كل مذكرات « ماركو بولو » التى أملاها فى سجنه فى مدينة جنوة فى نهاية القرن الثالث عشر الا هذه العبارة .. « وعندما عاد أبى وعمى من الصين ، كانت أمى قد ماتت ، وكنت وحدى فى البيت وقد بلغت العشرين . وسألنى أبى : هل تجىء معنا .. وكنت انتظر هذا السؤال ..

وقد أعددت له اجابة مركزة : نعم ـ واشار أبى وعمى الى أن استعد . وكنت قد اعددت كل شىء . وفى اليوم التالى اتجهت الى الصين . ولم استطع أن اصارح أبى بأنى قد نسيت معظم ملابسى .. من شدة الفرحة .. فارتديت ملابس والدى وعمى .. وكنت قد ارتديت ملابسهما قبل ذلك بسنوات : فقد كنت أحلم بما يحلمان به واروى لنفسى مغامراتهما : لقد عشت حياتهما دون ان يعرفا ذلك .. فلم تبق الا ملابسهما أيضا .. وارتديتها .. »

وأنت لن تعرف بسهولة تلك الجملة التى اعجبتنى واضحكتنى وهزتنى والتصقت فى نفسى وجعلتها برنامجا لكل رحلة : فالذى أعجبنى من كل صفحات ماركو بولو .. أنه نسى ملابسه .. ولم يحمل معه شيئا منها ..

فهذا بالضبط ما افعله بحكم العادة ..

ولا أنسى يوم سافرت لاول مرة الى ايطاليا .. ووقفت فى المطار اتحدث الى موظفى الجمرك وكان بعضهم من تلامذتى فى الجامعة .. وطال الكلام وطال .. وسألنى واحد منهم :

وأين حقائبك ؟

قلت : لماذا ؟

قال : لكى تبعث بها الى الطائرة ؟

قلت : هذه ؟

وصرخ الرجل : معقول هذا ؟!

قلت : فقط هذه الحقيبة ..

وقد ظل الرجل يحدثنى طويلا ظنا منه ان حقائبى لم تحضر بعد .. ولم تكن غير حقيبة واحدة بها قميص

وبنطلون وماكينة حلاقة وزجاجة كولونيا وثلاثة كتب .. لكي أبقى شهرا في ايطاليا !

ومرة أخرى لكي أؤكد لاصدقائي الذين أحسوا انني سوف اسافر بعيدا ، حملت حقيبتي الصغيرة معي .. وسألوني : اذن أنت مسافر الى الاسكندرية .

قلت : نعم ..

قالوا : هذا واضح ..

وهم يقصدون ان الحقيبة صغيرة . وان الملابس التي بها قليلة .. ولم أكن مسافرا الى الاسكندرية وانما كنت مسافرا الى الهند ومنها الى استراليا .. الى اليابان وامريكا .. وأكثر من ٢٣٥ يوما متواصلة !

فانا أضيق بأن يعرف أحد موعد سفري فيضطر الى ان يرهق نفسه بتوديعي .. كما انني أضيق بالوداع .. وأضيق بالاستقبال أيضا . . ولا أرى لذلك مبررا .. ولا أعرف ما الذي يقال أو ما الذي أقوله ذهابا وايابا ..

أو كأنني لا أصدق انني سوف اسافر .. فاذا لم أتمكن من السفر ، فلا احد قد عرف ذلك .. مع انه لم يحدث مرة واحدة ان اعتزمت السفر ولم اسافر .. ولكنه خوف قديم ثابت ليس له مايبرره غير أن له تاريخا في طفولتي .. ولم أفلح في التخلص من بقايا أوجاع هذه الطفولة بعد .. ولا أظنني قادرا على ذلك !

ومرة ضاعت حقيبتي في مطار فرنكفورت ..

ولا اعرف كيف ضاعت .. واعتقد انني نسيتها في الطائرة .. فقد كانت حقيبة يد صغيرة .. وكان لابد أن أتخلف ليلة



في المانيا قبل سفري الى السويد .. وفي هذه الحقيبة كل ملابسي الضرورية .. وهي قليلة جدا .

وذهبت الى مكتب شركة الطيران . ووعدني الموظفون بالعثور على الشنطة في أسرع وقت . وارسلوا برقيات وانتظروا ..

وسألوا عن احتياجاتي الضرورية .. وعن محتويات الشنطة بالضبط . وقلت ـ وأنا كاذب مع الاسف ـ : بيجاما صوف وملابس داخلية .. ومناديل وجوارب وفوط وصابون وامواس حلاقة وعطور ومعجون اسنان ..

وبسرعة فوجئت بكل هذه الاشياء في غرفتي في الفندق ومعها باقة ورد واعتذار رقيق من شركة الطيران وتجديد للوعد بالعثور على شنطتي الضائعة ..

وشعرت بالخجل مرة أخرى لانني تصورت ما الذي سوف يحدث عندما يجدون شنطتي الصغيرة وليس بها سوى بيجاما واحدة .. وقطعة واحدة من كل شيء وتمنيت الا يعثروا عليها أبدا ..

وسافرت وعدت .. وكانت الكارثة المروعة :

لقد وجدت الشنطة الملعونة في انتظاري .. وانا عندما كذبت كنت اتستر على فضيحة أخرى هي ان ملابسي قليلة لاتذكر ! ..

هكذا .. انا اذا سافرت لا احتاج الى اى وقت .. ولا لاي استعداد نفسي .. في اية لحظة استطيع أن أنزل الجاكيتة واقفل باب المكتب وانطلق الى المطار .. أما الملابس فيمكن الحصول عليها من الخارج .. أو يمكن غسلها في الفندق . .

وكل شيء بعد ذلك يهون . فالمهم ـ دائما ـ هو السفر . . هو الخروج . .

وليس السفر تغييرا لمكان المشى أو النوم أو الاكل . . وانما هو تغيير للموقف . . تغيير للسمع . . جلاء للبصر . . تجديد للرؤية . .

وعندما سافرت الى اوروبا لاول مرة لم يتسع وقتى لكى أخبر احدا من الناس . . فقد علمت بالسفر فى الصباح . . وفى المساء كنت فى المطار . . فى الجو . . فوق البحر الابيض المتوسط . . ومن الطائرة رايت مدينة الاسكندرية لاول مرة . . فلم أكن قد رأيتها هكذا كاملة جميلة من قبل . .

وعندما سافرت الى الكونغو قيل لى فى التليفون : تسافر ؟

قلت : طبعا .

ـ ودون أن تعرف الى أين ؟

ـ لايهم . .

ـ اذن الى الكونغو . .

ـ حالا . .

ـ اتجه الى المطار . .

واتجهت الى المطار وفى يدى صحيفة « الاخبار » وقد لففت بها قميصا وجوربا ومنديلا وكتابا . . !

وليس يحدث هذا فقط اذا ما سافرت الى الخارج وانما اذا سافرت الى الاسكندرية . . كل ما أذكره هو هذه السرعة فى السفر . . فى الانطلاق . . الضيق الوحيد الذى أشعر به هو



ملابسى التى لايمكن أن تفارقنى . . ثم هذه السيارة أو الطائرة التى ليست لها سرعة الضوء فى الانتقال من شاطىء النيل الى شاطىء البحر :

وفى احدى المرات دخلت الفندق وحجزت غرفة . . ولما سألنى موظف الاستعلامات عن الشنط . . أدركت اننى نسيت الشنطة فى القاهرة . . أو نسيت ان أعدها . . فقلت له : حالا . .

ونزلت الى الشارع وبحثت عن شنطة ووضعت فيهاملابس اشتريتها وعدت الى الفندق . .

ولم اكد انهى دهشة موظف الاستعلامات حتى جاء شاب يقول لى أمامه : حضرتك نسيت بقية العشرة جنيه . . !

وعرف موظف الاستعلامات اننى اشتريت الشنطة وما بها . . ومنذ لحظات . ولعله لم يفهم المعنى الحقيقى وراء هذا التصرف . . ولكن المعنى الحقيقى هو اننى اذا قررت السفر فمعنى ذلك أن تسافر نفسى . . روحى . . عقلى . . اما هذه الاشياء الاخرى فتجىء فى الدرجة الثانية وفى معظم الاحيان لاتجىء !

وأجمل وأصدق وصف لى هو ما قاله الاب الفيلسوف تايلار دى شاردان الذى كان أستاذا للعلوم فى القاهرة فى كتابه الذى سجل به رحلاته الى بلاد الصين : اننى أولد فى هذه الرحلات . . اننى أنظر وأنظر فى جشع وشراسة . . هذا هو طعامى . . ثم اننى اذا شربت وارتويت وسكرت فليس من الناس وتاريخهم ولا من النباتات والحيوانات . . ولكن من الضياء التى تتدفق فى أعماقى » .

ويقول الاب دي شاردان : انها هذه النفس الغامضة . . انها ((أنا)) . . هذه ((الانا)) المغامرة . . الباحثة . . الانا التي تريد أن تذهب الى أبعد مكان في الدنيا . . الى أطراف كل شيء . . وكل انسان . . وكل فكرة . . انها هذه الانا التي تريد أن ترى أبعد . . وتسمع أعمق . . انني اريد أن أعرف بصراحة وبايجاز ما الذي يكمن في اعماق هذا الاناء الانساني)) . .

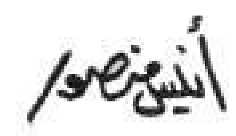
ولما سئل هذا الفيلسوف العظيم عن سر سعادته قال : ان الارض كروية !

فهي تدور ونحن ندور . .

لاهي تهرب من تحت اقدامنا . . ولا نحن تهرب من فوقها . . وحتى عندما ننطلق بعيدا عنها فسنظل مشدودين اليها . . وعلى موعد معها . . لكي نسافر من جديد . . نسافر في البر او في البحر أو في الهواء . . بلا حقائب . . فالحقائب لاتهم . . فنحن نحمل بين ضلوعنا شيئا أهم من الحقائب . . نحمل الشوق الذي لايخمد الى كل ماهو جديد : في الارض وفي الناس . . وفيما بين الناس . . في كل أرض . . وبين أي ناس . . فالارض لله . . والناس أيضا . . ولا فرق بين الناس هنا والناس في أي مكان . . فكل الناس ينشدون راحة البال ويطلبون من الله أن يعطيهم المعدة ليهضموا الطعام . . ويعطيهم الطعام لتهضمه المعدة . . ويعطيهم الحرية ليفعلوا بما لديهم ما يريدون . . وأن يعطي الجميع سلاما في النفس وفي الحب وسلاما بين النفوس والعقول . .

فكل أرض لله . . وكل ناس مخلوقات الله . .

وكل رحلة هي في بلاد الله وبين خلق الله !





كانت أقصر وأطول رحلة . .

وكانت أشدها حرارة . .

وعمقا . . أيضا ! .

الكونغو .. بلا لوهومبا



..وقفزت الى السرير!

اصطدمت بأحد الناس فى مطار القاهرة .. وتلهفت على الاعتذار له فاصطدمت بواحد آخر .. وعندما صدمنى شخص ثالث وجدت أن الفرض الذى يريح الانسان هو أن يقول لنفسه ان كل الناس بهائم ..

ولم يكن هذا الفرض ظالما فمطار القاهرة مظلم والناس أشباح .. ونصف هذه الأشباح جنود .. ونصف الكلام باللغة الانجليزية ذات الخنافة المعروفة .. ولكن ليس هذا وقت ضبط الأنوف أو الألسنة وما أعرف كم من عدد الكلمات التى أسمعها انجليزى وكم امريكانى ..

فالمهم هو أن أجد لى مكانا فى الطائرة التى هناك .. والتى لا أراها بوضوح ولا أعرف أحدا من ركابها .. ولا أعرف ان كانت على استعداد لأن تقبل مسافرا مثلى .. أو شحنة بشرية متجهة الى الكونغو ..

وحاولت أن أتجه الى مصدر الضوء فى المطار .. وحاولت أن أختار شخصا أصطدم به لعلى أرغمه على أن يقبل اعتذارى .. ومع هذا الاعتذار أسأله : الى أين نحن مسافرون ؟ وفى اية طائرة ..

وفجأة أضىء جانب من المطار ..

وظهرت الطائرات ضخمة .. لونها أسمر .. كأنها اشتعلت فى السماء .. وانقذت فى آخر لحظة .. أو كأنها عندما احترقت سقطت عليها الامطار بمعجزة .. ولذلك تحتفظ هذه الطائرات بلون السحاب ولون الدخان .. وعلامات بيضاء هى امضاء البرق على هذه اللوحة القاتمة .. ولاحظت ايضا أن كل الذين التفوا حول هذه الطائرة من الجنود المصريين الشبان المسافرين الى الكونغو .. وهم جنود المظلات .. ولاحظت أيضا أن هناك سيارات اتجهت الى هذه الطائرة .. ثم الى داخل الطائرة .. وكانت هذه أول مرة أشاهد فيها عملية ابتلاع الطائرات الحربية للذخيرة والجنود والقنابل والديناميت وسيارات الجيب .

ولابد أن تكون هناك طائرات أخرى للمدنيين ..

فالمدنيون — مثلى — لا تقوى أجسادهم التى اعتادت على المقاعد الجلدية والتقلب .. ان يتمددوا على الحديد .. والا أن يتراجعوا بمقاعدهم الى الوراء ويناموا فى هدوء .. أو يصطنعوا النوم .. حتى تجىء المضيفة وتقول لهم : اصبحوا على خير .. واذا كنتم فى حاجة الى أى شىء فلا ترددوا ! ..

ومن المألوف أن يتردد الانسان فى طلب معظم الاشياء .. لأن من حق المضيفة أن تنام هى الاخرى فى مثل هذه الساعة من الليل .

وفى هذا الظلام لمست يدى يد أخرى .. واستسلمت يدى والتفت بسرعة حول الذراع الناعمة واتجهت أنا الى صاحبة الذراع وقلت : أين طائرتى يامدموازيل ؟

فقالت المضيفة الانجليزية : أنت مطلوب فى الاستعلامات ..

قلت : **أنا بالذات ..**

قالت : نعم ..

ولم أناقش طويلا ونحن واقفان فى الظلام .. انما اختصرت الطريق وادخرت الكلام لكى أراها فى النور أوضح وعلى مهل ..

وفى النور قابلنى أحد رجال الجيش وسألنى ان كنت أحد الصحفيين المسافرين الى الكونغو .. وسألنى عن بقية الزملاء .. وبسرعة ظهر الزملاء .. وبسرعة سألنى أيضا : أين الحكمدار ..

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة « حكمدار » ، وارى أن الموقف يقتضى ان أكون هذا الحكمدار . ووجدت الاجماع قد اختارنى حكمدارا . وكلمة حكمدار عند العسكريين معناها : الشخص الذى يتلقى الاوامر ويبلغها الى زملائه ويتولى تنفيذها . وعلى الرغم من أن عددنا أربعة . فاننا من الناحية العسكرية يجب أن يكون لنا حكمدار . وانتهزت فرصة تعيينى حكمدارا واعتذرت . وغضب الضابط لهذه الفوضى ورفض أن يبلغنا الاوامر التى لديه ..

ولم نعرف حتى الآن ما هذه الاوامر .. ومستحيل أن نعرفها ما دمت قد رفضت هذه الوظيفة ..

وفى آخر لحظة التقى أحد الزملاء بالضابط وقال له : انه فى استطاعته أن يكون حكمدارا • وفرح الضابط لهذا الضبط والربط .. وجاءت التعليمات صريحة تقول : **ان أحدا ليس مسئولا عن سفرنا الى الكونغو .. وانه مهما حدث لنا فنحن وحدنا المسئولون !**

وكان هذا القرار مثل ستين قلة قناوى قد انكسرت وراءنا قبل أن تتحرك الطائرة .. أو بعبارة أخرى : فى ستين داهية .. والى نهار أبيض ان البلد قد تخلصت منا جميعا !!

وابتلعت هذه الامنية الغالية ونظرت الى الطائرة وهى تقذف اللهب .. وتعلقت عينى بالمواد المتفجرة التى امتلأت بها الطائرة . ووجدت أن هذه الطائرة هى « الداهية » التى سوف نذهب بها وتذهب الينا .. وانه من الممكن أن يكون النهار أبيض ألف مرة فى لحظات اذا ما انفجرت هذه الطائرة فى المطار واستراحت البلاد منا.

وفى هذه اللحظة لم أكن أتصور أننى عبء على البلد لهذه الدرجة .. ولم أكن أتصور أن الخلاص منى يحتاج الى ثورة فى الكونغو .. والى ارسال قوة من المظلات المصرية وقوات جزائرية وسودانية الى الكونغو والى طائرة ضخمة تسافر فى ساعة متأخرة من الليل .. ولكن يظهر أن الانسان يعيش ويموت دون أن يعرف قيمته الحقيقية عند غيره من الناس !

ونظرت الى الطائرة المليئة بالمتفجرات وعرفت قيمتى الحقيقية . وعرفت هذا القبر الطائر .. هذا الجحيم المنطلق ..

وبسرعة تخلصت من أهميتى وقيمتى التى احتفظت بهما منذ تركت مكتبى فى « أخبار اليوم » حتى جئت الى المطار .. وأحسست بشىء من الخفة .. وشىء من الحرية .. فالمطار أصبح بالنسبة لى منطقة انعدام الوزن والقيمة والاهمية .. وفى الظلام وبين الجنود وبين الاشباح اتجهت الى احدى الطائرات .. ووجدت الجنود قد حجزوا أماكنهم .. ملابسهم صفراء .. شبان سمر .. على وجوههم الارهاق .. وقد وضع كل واحد منهم بطانية عند قدميه .. وبروح شابة حلوة اتجهت العيون ناحيتى فيها اشفاق وفيها زمالة .. واتسع بعضهم مكانا على أرض الطائرة .. نعم على أرض الطائرة .. فالطائرة لها أرض .. بل كل جدرانها أرض .. انها عارية تماما . جلد على عظم .. لا توجد بها قطعة خشب واحدة .. انها طائرة بلا موبيليا .. انها تذكرنا بأول طائرة ركبتها فى حياتى سنة ١٩٤٩ عندما سافرت الى أوربا فقد كانت مثل اللوريات ينقلون فيها الحيوانات

من شرق أفريقيا الى غربها .. وكنا نجلس على أرضها .. ونمسك فى حبل يمتد من مقدمتها الى ذيلها .. وعندما كانت تهتز .. نهتز أيضا كما يهتز حبل الغسيل فوق السطوح .. ويتساقط منا العرق أيضا . وعندما حاول بعضنا أن يعترض على هذه الطائرة قيل لنا ما معناه : على قدر فلوسكم !

وعندما حاول بعضنا فى ذلك الوقت أن يكون ظريفا مع قائد الطائرة قائلا له : اسمع يا أسطى .. هذا الاتوبيس نمرة كام ..

كان رد الكابتن : الاتوبيس ليست له نمرة ، ولكن الركاب لهم نمر على قفاهم !

أما هذه الطائرة الحربية فهى مختلفة تماما .. فلا توجد بها حبال .. ولا أخشاب ولا أحد يعرف لها أسطى .. ولا كمسارى .. ولا رقم .. ولا اتجاه ..

ولكن أحد الضباط أشار الى أن أركب السيارة الجيب الموجودة فى داخل الطائرة . ففى هذه السيارة مقعد من الجلد .. تصور !

مقعد من الجلد فى داخل سيارة فى داخل طائرة . انه يشبه كرسيا نزع من صالون حلاقة ووضع على الرصيف .. فهو الكرسى الوحيد .. وهو مطمع كل الجنود الذين تهالكوا على جدران الطائرة.

باحساسى بأن هذا المقعد نعمة من عند الله .. اتجهت اليه بشىء من الامتنان .. وهذا الامتنان جعل الصدمة التى هزت رأسى بعنف وأنا أدخل السيارة ، نوعا من اللمس الرقيق . أو كانت هذه الصدمة بسبب الحسد .. ثم حمدت الله عليها .. فهى أهون بكثير جدا من الامتيازات الرسمية التى تلقيتها فى المطار .. فالمطلوب أن أروح على مسئوليتى . وألا أجىء على مسئوليتى .. وأن أموت على مسئوليتى . فأنا القاتل والقتيل .. وأنا كالنار يأكل بعضى بعضى .

ولمست بسرعة باب السيارة .. انه حديد جليد .. ولمست الدريكسيون انه شديد البرودة .. وكذلك كل أجهزة السيارة .. ثلج فى ثلج ..

أما ملابسى فهى نصف ملابسى .. جاكتة من تحتها قميص .. وتحت القميص شبه قميص .. والقميص مفتوح فأنا أضيق بالكرافتة .. وأضيق بالحزام .. وأضيق برباط الجزمة وجلدة الساعة .. ولو كان الامر بيدى لنزعت الزراير .. وتحولت ملابسى كملابس

الاحرام .. ولكن فى تلك اللحظة تمنيت أن أجد مع الجنود ابرة وفتلة لأسد كل هذه الفتحات .. فقد لاحظت أن هواء باردا يهب من تحت المقعد .. وتلمست بنطلونى فوجدته سليما .. ولسبب لا أعرفه أحسست أن الهواء البارد قد أخذ يدور حول جسمى .. ويتجه باحكام شديد الى أنفى .. وعطست .. وهذا طبيعى .. فأنا يكفينى جدا أن ألمس شيئا باردا لأصاب بالزكام .. فأنا مزكوم دائما ولكنى أبحث عن فرصة .. وجاءت الفرصة الحديدية .. وعطست .. وانزكمت .. وانسد أنفى .. وانسدت منافذ الطائرة .. وأقفل أحد الأشباح بطن الطائرة .. ودارت المحركات .. واستسلم كل الحاضرين .. فلا شىء يملكه الانسان فى طائرة الا أن ينظر الى السقف ..

ونظرنا الى السقف وتفادينا النظر بعضنا الى بعض .. فليس هناك ما نراه فى وجود الآخرين الا صورة لا نحساس القلق والخوف وشىء من الذل .. ومقاومة خفيفة يمكن أن تسميها : الامل أو التوكل على الله .. مع شىء تافه اسمه : الثقة بالنفس ..

وبسبب هذا الافلاس المعنوى لا ينظر احد الى أحد .. ونرى فى السقف متسعا للجميع ..

ولا أعرف ان كانت محركات الطائرة التى لم أرها قوية جبارة .. أو أن محركاتها عادية جدا ولكن صوتها يدوى لعدم وجود أية طبقة عازلة من الخشب أو من الزجاج أو الفبر .. ان صوت الطائرة رهيب .. انها تأكل نفسها .. انها تزمجر .. انها تريد أن تتحرر من شىء .. من جاذبية الارض .. من الليل .. من الظلام .. ان المحركات نفسها تريد أن تنفلت من الطائرة .. ليتها تفعل ذلك .. فرغبتى فى اكمال الرحلة التى لم تبدأ قد ضعفت .. وأية محاولة منى للخروج من الطائرة الآن مستحيلة .. ولا يوجد أى عذر .. فلا أستطيع أن أتظاهر بأننى نسيت شنطتى أو جواز سفرى .. أو أن شخصية هامة كانت تنتظرنى ونسيت أن أودعها .. كل هذه الاعذار والاوهام قد تجمدت فى رأسى بسبب البرد .. وكلها قد طحنتها المحركات وتحولت الى تراب تطاير والتصق هو أيضا بالسقف ..

وتحركت الطائرة كما يتحرك لورى فى طريق زراعى غير مرصوف .. يبدأ من القاهرة وينتهى فى الكونغو فى قلب أفريقيا ..

ومن الغريب أن الوقت لم يتسع لأعرف الى أين أنا ذاهب .. ولا

كم طول المسافة .. ولا كم ساعة نقطعها .. ولا ما هو أول مطار .. ولا كم يوما سنبقى هناك .. لا شىء .. لا معلومات .. لا فلوس .. لا ملابس .. وكل ماعندى من معلومات هو هذا الحوار القصير الذى أعتز به وأردده كلحن جميل .. اما هذا الكنز المعنوى فهو :

— هل مسافر الى الكونغو ؟

— نعم .

— الآن ..

— فورا ..

— أنا كنت متأكدا من ذلك !

— شكرا !

انتهى الحوار .. ولكنه لم ينته فى أذنى .. انه يتردد مدويا كالاجتماع فى جلسة برلمانية .. لا تقابله الا بالسعادة لهذه الثقة الغالية ..

ولكن هذه الثقة الغالية مثل بلوفر أضعه على قلبى .. تحت جلدى .. آه لو كان يلتف حول جنبى من ناحية اليمين .. ناحية المصران الغليظ ..

.. فقد اكتشفت فى هذه اللحظة ان فى الجانب الايمن من بطنى يوجد كتكوت ينقر .. كأنه فى بيضة .. ومن الغريب أن الكتاكيت لاتخرج من البيض الا فى الدفء .. ولكن هذا الكتكوت لايخرج الا عندما يكون هناك برد شديد كالذى أقرفص فيه الآن ..

وارتفعت الطائرة .. وانخفضت زمجرة المحركات قليلا .. ولكن الطائرة ضخمة .. راسية فى الجو .. لا تهتز .. هكذا قلت لنفسى مطمئنا .. ومبدئيا ..

وكلما ارتفعت فى الجو .. ارتفعت درجة الحرارة .. وارتفعت كأننا كنا تحت خط الاستواء .. ثم اقتربنا .. وكأن خط الاستواء فوق فى السماء

.. ثم تحولت الحرارة الشديدة الى هواء ساخن .. هواء من نار .. لقد تحول خط الاستواء الى خط نار .. ولاحظت ان الجنود الذين حولى .. بدأوا يفكون زرار قمصانهم .. وشعرت بالارتياح .. فان هذا الهواء الساخن قد انقذنى من زمهرير السيارة ..

ولكن راسي اصطدم بالسيارة عندما خطرت لي فكرة ان هذه الحرارة من الممكن ان تؤدي الى انفجـــار الديناميت والبارود والقنابل التي امتلأت بها الصناديق التي أمامي وورائي .. ثم ابتلعت ريقي وسكت . وكأن راسي عندما اصطدم في السيارة قد سحق هذه الفكرة السخيفة التي افزعتني ..

ولاحظت ان الطائرة تهتز .. وانها تهبط .. او هكـذا توهمت .. والتفت حولي لاتأكد من شعوري .. ووجدت الوجوه كلها تؤكد ان الذي احسست به صحيح .. فالطائرة اتجهت الى الهبوط .. مع أننا لم نترك مطار القاهرة الا مدة عشر دقائق ..

وقيل في المطار ان أجهزة التكييف في الطائرة قد فسدت . ولابد من اصلاحها ..

وجاء هبوط الطائرة يؤكد لنا ان هناك حرصا من جانب احد من الناس على أن نعيش او على ان يعيش هو .. فقائد الطائرة الذي لم اره لايريد أن يموت لا هو ولا غيره .. ومن اجل ذلك عاد الى الارض ليصلح الجهـــاز الذي اختل ثم يستـــأنف رحلتـــه الى اواسط أفريقيا ..

وارتفعت الطائرة . . وكلمـــا ارتفعت ازدادت درجة الحرارة انخفاضا .. شيء عجيب .. كان خط الاستواء المرسوم فوق مصر قد تحول سرا الى منطقة قطبية جليدية .. وبدأت انطوي على نفسي .. او على الاصح التوى على نفسي .. واضع يدي على بطني .. وعلى جنبي الايمن .. وأتفـــادى أن يصطدم رأسي بدريكسيون السيارة التي اتخـــذت وضعا مخالفا للطائرة .. فالطائرة تتجه بمقدمتها الى الجنوب .. الى الكونغو والسيارة تتجه بمقدمتها الى الشمال الى القاهرة .. فأنا أركب سيارة لاتتحرك ومع ذلك تطير بسرعة ٥٠٠ كيلو في الســاعة .. وفي درجة حرارة قريبة من الصفر ! .

وكانت ســعادتي لاحد لها عندما شعرنا جميعا بنفس الاهتزاز والدوران .. وهبطت الطائرة الى ارض المطار .. مرة أخرى . لكي يتم اصلاح اجهزة التكييف .. وهبطت الطائرة .. وهبطت انا في مقعدي .. وهبط قلبي في قدمي .. واصبحت حيـاتي شيئا عند قدمي لايساوي ان أحرص عليه .. فقد وجدت الى جواري شبانا مواطنين شجعانا ذاهبين الى أرض مجهولة .. يدافعون عن قضية الحرية .. وقضية الشعوب التي لايعرفونها والتي لم يروها ولم

يعرفوا لغتها .. واحسست ان مشاعري هذه نوع من الترف .. وان سلامتي نوع من التعالي .. وان مخاوفي طفـولية .. ولم ابرح مكاني ..

وبعد نصف ساعة استغرقتها في معاتبة نفسي وعقابها . قامت الطائرة .. وقد تغير كل شيء فيها .. صـــوتها .. هواؤها .. جوها .. طعمها .. فقـد اكتشفت فجأة ان في فمي لبانة . وان هذه اللبانة قد التصقت في جدار فمي .. كأنها هي ايضا خائفة .. ومع حركة المضغ ارتفعت معنوياتي .. وتغير طعم الدنيـا على لسـاني .. والآن اخذ يتغير لونها ايضا .. فالآن ارى بوضوح كل هؤلاء الجنود بملابسهم الصفراء . وقد تجاوروا ومالوا بعضهم على بعض .. وناموا .. أسلحتهــم في ايديهـم .. وذخـيرتهم تحت أقدامهم ..

وخرجت من سيارتي . كما يفعل رواد الفضاء ..

واقتربت من احد الجنود وسألته ان كانت معه كوتشينة فقال وكأنني انقذته من بحر من الملل العميق : معي .. تلعب كونكان ؟

وبسرعة رددته الى حالة الملل : لا أعرف غير لعبة الكومي !

ورجعت الى مكاني من السيارة .. لا أنا اريد ان اعرض عليه ان يعلمني الكونكان .. ولا هو يريد ان يلعب الكومي .. ولا حتى في الامكان أن نشترك جميعا في لعبة الشايب .. !

ونظرت الى ناحية أخرى .. كما تنظر سمكة الى سنارة مع فارق واحد انني ابحث عن الذي ينقذني أيضا من ماء له رائحة كريهة .. ووجدت شابا على وجهه ابتسامة مرحبة .. وخرجت من السيارة وتساندت عليها وعلى جدار الطائرة وقلت له : يبدو انك عاجز عن النوم !

وبسرعة عدت الى مكاني فقد كان نائما وهو مفتوح العين ..!

اذن فالطائرة سجن حقيقي .. المسافات كلها قريبة .. لاضوء .. لا حركة .. لا حرية .. لا كلام .. مع كل هذا العدد من الناس شعرت بوحدة فظيعة .. ومع كل هـــذه المواد الملتهبة اشعر ببرودة فظيعة .. ومع كل هذا الارتفاع اشعر كأن الطائرة تزحف تحت الارض .. والليـل طويل .. ويبدو انه ليل دائم .. فالطائرة بلا نوافذ .. او على الاصح لم اجد لها نافذة .. وحتى اذا وجدتها فلا معنى لها ..

واغلب الظن انى نمت . .

وفتحت عينى على ضوء قريب الشبه من ضوء النهار . . أو هو ضوء النهار . . وسمعت عبارات قريبة جدا من : صباح الخير . . صباح النور . .

طلع النهار . . والشمس بدأت اشعتها تصبغ الطائرة بلون النار وقالوا انا أمضينا فى الجو ثلاث ساعات . . وقالوا خمس ساعات . . فلا معنى للزمن . . ولا معنى لما نقول . . فنحن شحنة فى لورى جوى . . والسائق هو وحده الذى يعرف مصير هذه الشحنة . . وان كنا نحتفظ ببعض المعلومات الاولية . . ومن بين هذه المعلومات اننا فى الطريق الى الكونغو احدى المستعمرات البلجيكية والتى تبلغ مساحتها حجم بلجيكا ٨٠ مرة . . والتى عدد سكانها ١٣ مليونا . . والكونغو فى حجم الهند التى يبلغ عدد سكانها ٥٥٠ مليونا . . ولذلك يمكن ان يقال ان الكونغو « دولة » خالية من الناس . . ولذلك سوف تكون مفاجأة كبرى ان نجد احدا فى اى مكان . . فالرجل الانجليزى الذى اكتشف الكونغو فى سنة ١٨٧٥ اندهش جدا عندما صادف فى غابة شاسعة أربعة أشخاص . فقد أعلن انه قابل مظاهرة من المواطنين !

والكونغو هى اكبر « عزبة » عرفها الانسان . .

فقد كانت الكونغو من الممتلكات الشخصية لملك بلجيكا . ومساحة العزبة حوالى مليون ميل اى نصف مساحة القمر . . ومن الغريب ان الذى اكتشف الكونغو ليس بلجيكيا . . والذى يملك الكونغو ايضا ليس بلجيكيا . . فالذى اكتشفها صحفى بريطانى اسمه جورتون ستانلى . . وملك بلجيكا المانى لم ير هذه البلاد . . ولم يفكر فى أن يزورها . . وانما كان مشغولا بامتصاص اموالها . وكان هذا الملك نموذجا لدناءة الانسان ووحشية الرجل الابيض . . فقد ارتكبت فى الكونغو مذابح ليس لها نظير فى التاريخ . . فقد كان من حق الرجل الابيض أن يقطع ذراع وساق أى رجل من الكونغو لاى سبب . . وكثيرا ماكدس الرجل الابيض عددا كبير من اطراف المواطنين للارهاب . . وظل هذا الارهاب الوحشى زمنا طويلا لايدرى به احد . . ولكن عندما بلغت القارة الاوروبية والعالم المتحضر انباء الملك المتوحش ، فزع الضمير العالمى . . ولم يكن هذا الفزع معناه : الدعوة الى تحرير افريقيا من الاستعمار . . وانما كان معناه فقط ان يكف الملك ورجاله عن هذه القسوة ولكن ان يبقوا فى مكانهم . .

فبلجيكا كغيرها من الدول الاستعمارية تملك مساحات شاسعة . . وفرنسا تملك ارضا فى حجم فرنسا نفسها ٢٣ مرة وبريطانيا تملك ارضا فى حجم بريطانيا ٣٠ مرة . . والبرتغال تملك ارضا فى حجم البرتغال ٢٠ مرة . . فالمطلوب هو أن يغسل البيض ايديهم من دماء السود فقط . .

ولكن ان تظل اقدامهم فى كل مكان . . يستنزفون دماء القارة السوداء التى تتفجر بالنور والنار ايضا . فافريقيا تنتج ٩٨٪ من الماس العالمى و ٢٢٪ من النحاس واليورانيوم و ٦٠ ٪ من الكاكاو و ٦٠٪ من زيت النخيل . . وعدد سكان افريقيا حوالى ٢٥٠ مليون نسمة وبها ٧٠٠ لغة وفيها ٩٠ مليون مسلم و ٣٢ مليون مسيحى والبقية من الوثنيين . . وكانت افريقيا المركز الوحيد لتجارة الرقيق التى ابتدأت فى سنة ١٥٢٠ تعبر المحيط الى امريكا . .

والغيت دوليا فى سنة ١٨٠٠ . . ولذلك فحوالى ٢٤٪ من الشعب الامريكى من الزنوج . . والزنوج قد اختلطوا بالبيض فى امريكا اللاتينية . .

وقد أرغم الملك ليوبولد على أن يتنازل عن عزبة المليون ميل الى الشعب البلجيكى فى سنة ١٩٠٨ ومات الملك بعد ذلك بعام واحد . . اما مكتشف الكونغو فقد مات قبل ذلك بأربع سنوات .

وما تزال الطائرة معلقة فى الهواء . . ومن الطبيعى ان تبقى كذلك فلا علاقة بين رغبتى فى ان أصل الى الكونغو وبين الطائرة . . فهى فى الطريق الى المكان الذى لا اعرفه . . وانا احاول ان اتسلى بشىء . . ولم اجد ما اتسلى به . . لا احد اتحدث اليه . . ولا كتاب ولا ورق . . ولا قلم . . ولا خريطة . . ولا رغبة فى ان افكر فى اى شىء . . فافكارى اكثر انكماشا من جسمى . . وعقلى مشغول بمصرانى الاعور الذى تحول الى وخز ابرة . . ثم وخز مسمار بارد . . ثم مسمار محترق . . ونظرت الى احذية الجنود الضخمة . . ووجدت ان هذا الحذاء هو أعظم مخبأ للاصابع والقدمين من البرودة الموجعة . . اما حذائى فاقرب الى شبشب الحمام . . واما جواربى فهى اقرب الى الجوانتيات . . وأما انا فاقرب الى الحفاة العراة . . ولابد انى ساكون اكثر الجميع خفة عندما نصل الى الكونغو الحارة . . ولكن متى نصل . .

وكأن الطائرة استمعت الى مايدور في رأسي .. فاتجهت الى الأرض .. تحاول الهبوط .. وهبطت على أرض الخرطوم .. وفي ساعة مبكرة دافئة ..

وفي مطار الخرطوم كانت الوجوه مستريحة مرحبة .. انهم ناموا وقاموا وشربوا الشاي الذي أحلم به . . وكانت سيقانهم ممدودة طول الليل .. وأذرعهم مسترخية .. واشعلوا اعواد الكبريت بلا خوف .. واطفأوها تحت اقدامهم بلاخوف .. واعدوا لنا هذه الابتسامة السخية اللامعة .. وهذه الابتسامة هي ثمرة للنوم والراحة والماء البارد والافطار وعدة اكواب من الشاي والسجائر والمشاركة العاطفية والوطنية لثورة الشعب في الكونغو ضد الاستعمار البلجيكي .. ضد الاستعمار .. وكأنهم يكلفوننا في اول لحظة التقينا بهم في مطار الخرطوم أن نحمل تحياتهم الى لومومبا الذي يجاهد هو وعدد قليل من المواطنين ضد تشومبي وغيره من العملاء .. وأنصار لومومبا في بلاده قليلون ولكنهم في العالم كله ألوف الملايين ..

ولا أزعم انني تلقيت هذه المهمة بارتياح .. فقد كنت مهموما بساقي وبطني .. ومتطلعا الى الدخان الذي يخرج من كوب شاي .. ولكن عندما دخلت الى المطار وجدت عشرات الاكواب .. وكأن معدتي قفزت بين اصابعي فمددت يدي الى كوب من الشاي دون ان استأذن من أحد .. وفوجئت بأن أحد القوانين المعروفة كان ضمن الذين نهضوا في الصباح المبكر .. فالقانون اسمه : تقسيم العمل .. فأنا عندما مددت يدي .. امتدت يد احد الجرسونات تمنعني من تقديم فنجان شاي الى نفسي .. فهذه مهمته هو .. انا اطلب وهو يقدم .. فاذا قدمت لنفسي فنجانا من الشاي فقد الغيت وظيفته واعتديت على قانون تقسيم العمل . . واحترمت نفسي والقانون .. وجاءني الشاي البارد وابتلعته وانا أغلي من الغيظ !

وأحسست أن هذا الفنجان مكافأة هزيلة لا تتناسب مع العذاب الذي لقيته من القاهرة الى الخرطوم .. وقررت أن اتبنى هذه القضية التي فرضت نفسها فرضا : هل من حقي ان اطلب فنجانا آخر من الشاي الساخن جدا حتى اذا كان ذلك اعتداء على قانون الذوق العام وقانون تقسيم العمل وقانون البيع والشراء مع ملاحظة انني لا أملك مليما واحدا ثم ان هذه التحية التي ترجمتها على أنها تحية الى لومومبا من شعب السودان الا استحق على حملها فنجانا من الشاي الساخن .. ما اعظم الرسالة وما اتفه الاجر ؟!

ونهضت كأي محام في محكمة النقض وجعلت ذراعي اليسرى ملتصقة بجسمي كأنها تقبض على ملف القضية وذهبت الى الجرسون وقلت : بل أريد الشاي ساخنا .. أريده يغلي كالثورة في الكونغو .. وفي كل أفريقيا !

(وكأي) محام لايتكلم في الموضوع لم يستمع مني الجرسون .. وتركني أستمر في الكلام عن نفسي وعن غيري وجاء الشاي الساخن .. واختفيت به في مكان من مطعم المطار .. وصببته في اعماقي .. في أمعائي . . وسكت الكتكوت في مصراني الأعور .. وسجلت في تاريخ حياتي : ان هذا هو أجمل وأمتع فنجان شاي شربته في حياتي

وبعد هذا الدفء في جسمي .. وفي الجو . . وبعد أن امتلأت الدنيا بالشمس .. اكتشفت أن في داخل الطائرة عددا كبيرا من النوافذ .. ومن هذه النوافذ رأيت أفريقيا ذات الغابات الكثيفة .. الشاسعة .. وبدأت أرى بوضوح نهر النيل وفروعه .. ومسطحات مائية واسعة .. وبعض أصحاب العيون القوية بدأوا يتبارون في معرفة بعض الحيوانات المتوحشة على الارض .. وتحولت الرحلة الى مباريات في دقة النظر .. ومدى القرب أو البعد من الارض .. وما الذي يحدث لو سقطت بنا الطائرة .. وأصبحت ضحية لذباب تسي تسي .. ـ والحقيقة أن هذا الذباب ليس في السودان .. ولكنه في تنزانيا وأنه المسئول عن هلاك ملايين من قطعان الماشية ومئات الالوف من الناس .. فهذه الذبابة تنقل النوم الى الجسم الذي تلسعه .. فينام حتى الموت .

وعلى الرغم من تشابه الارض الخضراء تحتنا فان احدا لم يمل النظر اليها ..

ولم أتمكن من رؤية منابع النيل . فقد كان لابد أن أكون على الجانب الآخر من الطائرة . ولم أستطع أن أتحرك ولا أن أزاحم الجنود .. ولابد أنني سوف أراها عند العودة . وتمنيت أن تكون عودتنا نهارا !!

وبعد أن اطمأنت نفسي الى أن الطائرة بخير .. والى أننا قريبون من الكونغو .. أسندت رأسي الى يدي .. واستعرت احدى البطانيات وتغطيت ونمت في حراسة ضوء النهار ومرح هؤلاء الجنود ..

وصحوت ، وألصقت خدي بالنافذة .. فالطائرة تهبط ..

ونقترب من الارض الخضراء الواسعة الشاسعة .. ولا شيء يدل على أن هناك أحدا من الناس .. لا بيوت .. لا طرقات .. بل المطار نفسه لا ندري أين هو .. لا مطار .. وهبطت الطائرة على ارض مستوية .. أرض مغطاة بالعشب الاخضر ..

هذه اذن هي الكونغو .. هذا الاخضرار الواسع .. هذه الغابات العالية الكثيفة المظلمة الصامتة .. والتى تخفى عددا من العيون السوداء التى لانراها .. والتى تسيطر على عدد من الاقزام وعلى عدد لا نعرف مداه من اكلة لحوم الانسان .. وغير ذلك من الاوهام والمخاوف التى تشيعها الغابة فى كل من ينظر اليها ..

واذكر انني عندما دخلت مطار الخرطوم لقيت أحد كبار الضباط .. وقد صافحني بحرارة من يعرفه .. والحقيقة أن أحدنا لا يعرف الآخر .. ولكن المعنى العام معروف لدى كل منا .. فنحن ضمن القوات المصرية المسافرة الى الكونغو .. وهذا يكفي .. وانتهزت هذه الابتسامة لافتح معه حوارا : كانت الرحلة صعبة ..

ولم يرد وانما ازداد عدد الاسنان البيضاء اللامعة في فمه ..
وعدت اقول له .. ولكن زمنها كبير .. فقد عدنا الى القاهرة مرتين .. في المرة الأولى ..

فقال : بلغني ذلك .. والحمد لله على السلامة ..

وقلت متشجعا وانا اريد أن أعرف .. كم عدد الساعات التى بقيت حتى تصل الى الكونغو ؟

وضحك بالفعل : لا أحد يعرف .. فالكونغو واسعة جدا .. ووجهة هذه الطائرة سر عسكري .. واذا هبطت الطائرة في احدى الغابات ووجدت الذين يتفرجون عليكم من الاقزام فمعنى ذلك أنكم في شمال الكونغو .. أما اذا كانوا عاديين فانتم في أى مكان آخر ..

ومعنى ذلك انني يجب ان انتظر أبناء الغابة ليخرجوا .. واحسب أطوالهم لأعرف أين نحن من هذه البلاد الهائلة .. ولم يظهر أحد .. لا أحد .. لا ناس .. لا بيوت .. لا حيوانات .. لا حشرات .. لا قرانصات .. فالصمت دافيء .. والرطوبة كثيفة .. وكل شيء ماض في حياته .. ونحن فقط دخلاء على ملايين الملايين من الاعشاب والاشجار ..

ولم يكن عند الجنود وقت للتأمل .. فعندهم مهمة عاجلة .. ولذلك تطايرت البطاطين والصناديق .. وأديرت محركات السيارات الجيب وهبطت من الطائرة .. والتف حولها الجنود .. وركبوا السيارات .. واستعدوا واصطفوا .. وصدرت اليهم أوامر وتحركوا واختفوا ..

وفي مقدمة الطائرة رأيت قائدها الامريكي .. وفلتت مني هذه العبارة : يا ابن الايه !

فقد كان يمسك سندوتشا ضخما فخما وسيجارا كوبيا محترما وزجاجة بيرة .. وكأنه أحد المسافرين بالدرجة الأولى في طائرة مدنية .. فلا أثر للتعب أو الأرق على وجهه .. ولم تطاوعني نفسي أن أسأله عن موعد العودة .. فقد أحسست أنه استغفلنا : ركب هو في الجانب المدني وتركنا نحن في الجانب العسكري من الطائرة .. بلا كوب ماء .. ولا كوب شاي .. ولا كلمة .. وظل يفعل بنا ما يشاء ..

وجاء أحد ضباط الامم المتحدة وطلب الينا أن نركب طائرة عسكرية صغيرة تنقلنا الى مدينة كوكيلاتفيل .. وهذه هي اول مدينة في الكونغو تذهب اليها .. اما هذه الارض التى هبطنا اليها فليس لها اسم .. وانما لها رقم فقط ..

وكانت الطائرة الصغيرة مريحة ..

وكان قائدها بلجيكيا .. وهذا مجرد استنتاج .. لانه لا مبرر للغضب الشديد على وجهه .. ولا مبرر للغيظ الذى ينظر به الينا .. ولا لتجاهله الاسئلة الكثيرة التى نوجهها اليه الا ان يكون بلجيكيا !

وكأنه اختصر المسافة المطلوبة فانزلنا بسرعة في أرض ملساء خضراء .. وتركنا نلقي بأنفسنا من الطائرة .. وظل هو في مكانه من الطائرة .. ولا كلمة .. ولا اشارة .. ولا نظرة .. ونزلنا في أرض لا نعرف فيها احدا .. ولا يعرفنا فيها أحد ..

وركبنا سيارة من سيارات الامم المتحدة ومعنا أحد الضباط المصريين الذى سبقنا الى هذه المنطقة .. ووجدنا امامنا مطعما .. فدخلنا .. ومقاعد فجلسنا .. وعلبا محفوظة فامتدت أيدينا .. وفتحنا العلب .. وبدأنا نأكل ..

والمطعم مهجور .. ليس به موظفون .. ويبدو انه كان مملوكا

لأحد البلجيكيين الذين هاجروا . وواضح جدا أن المكان مهجور . وكل ضابط أو جندي يمسح بمنديله مقعده . ويمد يده الى أكداس العلب ويأخذ ما يريد ويلقي بالعلب الفارغة في أي مكان . ولذلك فالمطعم ملئ بالفارغ والمليان ..

وكانت العلبـة الأولى : تونة .. وكانت العلبـة الثـانية : فاصوليـا .. والعلبـة الثالثة : فاصوليـا .. والعلبة الرابعـة : أناناس .. والعلبة الخامسة : جبنا .. ولا توجد أطباق أو شوك أو سكاكين أو أكواب .. وامتدت أيدينـا الى كل شيء .. وأكلنا كل شيء .. ولا طعم لأي شيء . فليس هذا وقت تذوق الطعـام ، وانما هو وقت ملء المعدة بالطعـام .. وبعد لحظات اكتشفت أن أصعب شيء في هذه البلاد التي لا تتوقف فيها الامطار هو الحصول على كوب ماء ..

ووجـدت أن المواطنين وهم يتكلمون الفرنسية التي تبعث على الضـحك .. فهم يغيرون بعض الحروف اثنـاء النطق .. فحرف « الجيم » يصبح حرف ذال .. وحرف الالف يختفي .. أو يصبح حرف باء .. وحرف الميم يصبح حرف نون .. وكل هذه التغييرات مقبوله على العين والراس بشرط أن تؤدي في النهاية الى كوب ماء ! ولم تؤد الى كوب ماء .. وانما اسفرت عن وعد بتحقيق هـذه الامنيه في أقرب فرصة !

والذي نتوقعه عادة من هـذه اللخبطه في تنـاول هذه الاطعمه المحفوظة الباردة قد حدث .. فهـذا الذي أشعر به هو من المؤكد نوع من المغص الشديد .. والبحث عن المسكنات أصعب من البحث عن الماء .. والبحث عن طبيب أصعب من البحث عن رجل بلجيكي في الكونغو !

وحول المطعم ظهر عدد كبير من رجال الامم المتحـدة .. وكلهم من الجزائريين الذين وضعوا علامات الامم المتحـدة .. واقتربت وسلمت . وطلبت الماء . وجاء الماء . وطلبت الدواء ووجدت الطبيب والدواء . وكان الطبيب دنمركيـا . وعرفته بنفسي وبزملائي . وضحك الطبيب وقال : احترسوا من الامراض الخبيثة !
ولم يضحك عندما قالها . وانما كان جادا . ولذلك استوضحته . وكان رده : انه توجد أمراض جلدية مستحيلة العلاج !

وعرفت فيما بعد أن عبارته هذه أخف من الامراض الخبيثة !

فقد كان يريد منا الا نصافح أبنـاء الكونغو أينما وجدناهم .. المواطنين العـاديين والموظفين .. فمن عادة أهل الكونغو أن يمدوا أيديهم بالسلام . فقد كان من المحرم عليهم أن يصافحوا البلجيكي الابيض .. ثم ان هـذا البلجيـكي قد عاش عشرات السنين وهو يقطع أيدي أبنـاء الكونغو لأتفه الاسباب .. فاذا نحن ترفعنا عن مصـافحتهم . ونحن افريقيون مثلهم ، كنـا أسوأ من البلجيكيين المستعمرين !

ولذلك لم أكد أرى واحدا من أبناء الكونغو حتى تقدمت اليه .. دون أن أرى الرمح الطويل الذي الصقه بجسمه ودون أن ألاحظ أنه عريان تماما ، ومددت يدي وقلت له ما معناه : ازيك يا أخ ..

ولا أعرف ان كانت العبارة التي قد صدرت منه معناها : العبيط أهوه .. أو كان معناها : لقد مضى وقت طويل لم يصافحني رجل أبيض !..

وان كنت أشك في ان لوني كان أبيض في ذلك اليوم .. فالسفر الطويل .. والارهاق الشديد .. والجوع والاضطراب النفسي والمغص قد جعلني أصفر اللون .. ولابد أن أعصابي كانت مشدودة لدرجة أنها سحبت عيني من وجهي فادخلتهما بضعة مليمترات الى الوراء .
ولا بد أن شعري قد ازداد كرمشـة .. وأصبح أقرب الى شعر الزنوج ..

على كل حال هذه صورتي كما أراها أنا . اما صورتي كما يراها هذا الأخ الزنجي فلا أحد يعرف مداها .. ولكن مهما كانت صورتي في عينيه . فانها لم تمنعه من أن يمد يده .. ويضغط على أصابعي بقوة . كأنه يؤكد لنفسه أن الذي يمسكه حر آدمي أبيض حقيقي .. وأنه ليس حالما . وان كنت أنا على يقين من أنه حالم فعينـاه لهما بريق غير محدد . وحدقتا العينين جامدتان . انه يشبهني عندما ذهبت للقاء ملكة الغجر في شمال ايطاليـا وكنت من المعجبين بها . وادخلتني حاشيتها في غرفة من داخل غرفة .. لأجدها أمامي عارية تماما .. وفي دورة المياه !

ويبدو أن مصافحتي لهذا الزنجي قد شجعت زوجته أو ابنته على أن تمد يدها .. ومن وراء الاشجار ظهر كثيرون .. وامتدت أيديهم بالسلام والتحية ..

وعندما عدت الى السيارة قال لي الطبيب الدنمركي : انك شخصية

محبوبة هنا .. وعبرت فى أعماقى على ابتسامة قديمة فأطلقتها .
ثم عاد يقول لى : وأنت محظوظ أيضا .

وعرفت انى محظوظ حقيقـة .. فلو نزلت طائرتنـا فى منطقة أخرى الى الشمال قليلا .. لكنت بطلا لمأساة حقيقية . فمن عادة القبـائل هنـاك أنهم اذا اطمأنوا الى شخص أحبوه . واذا أحبوه بصقوا على وجهه .. فالحمد لله !

ولا أذكر من الذى سألنى ما هى أحسن أغانى أم كلثوم لديك فقلت : النوم ..

فقد كنت احلم بالنـوم .. اذ احسست ان جسمى اعلن العصيان .. لا شىء يطاوعنى .. احاول فتح عينى فلا اقوى .. احاول مد سـاقى فلا أستطيع .. احاول ان اقعد فأتوجع .. احاول ان اقف فأدوخ .. احاول ان أفتح فمى فيخرج الكلام طليقا غير معقول ــ ومعنى كلمة « معقول » هو بالضبط المعنى العربى القديم الذى قصده رجال البادية : عقل البعير أى ربطه بحبل .. والكلام غير المعقول اى غير المربوط بحبل من المنطق والفهم !.

ودخلت بنا السيارة الجيب فى أحد القصور .. القصر له حديقة .. والقصر من دور واحد .. وعرفنا بعد لحظات أن المكان مهجور .. والتراب الكثيف على المقاعد والمناضد والنوافذ يؤكد ذلك .. وأوراق الاشجار التى غطت الطرقات لم تمسسها يد ولا قدم منذ سنوات طويلة .. ولا اعرف ان كانت هـذه الطيور القاتمة التى تتكاثر فوق رؤوسنا طيورا حقيقية او هى اوهامى .. او هى الطيور التى رآها فرعون مصر وهو يروى أحلامه للنبى يوسف عليه السلام .. هل هى غربان أو صقور .. او عصافير او فراشات .. أو هى نقط حائرة فوق حروف الكلمات التى لا تقوى على الخروج من فمى .. أو التى خرجت بالفعل من أفواه الزملاء ولم اجد لها معنى ولا طعما ! ..

ليس هـذا قصرا مهجـورا . انه أحد الاديرة . وقد تركه الرهبان .. ووجدت فجأة اننى استطيع ان افتح عينى وان اتحكم فى قدرتى على الفهم والتركيز عندما سمعت من احد جنود الامم المتحـدة أن فى الدير مكتبـة جيـدة .. وانه فى امكانى ان اراها لو اردت .. والحقيقة انى اريد ولكننى لا أسـتطيع . واذا لم استطع اليوم . فسوف استطيع ذلك غدا . وعلى مهل .. وتخيلت

نفسى بسرعة انى أحمل معى الى القـاهرة عشرات من هـذه الكتب .. ولم استطع أن اتخيل اننى احمل المئات .. فقد كان خيالى عاجزا عن المئات فاكتفى بالعشرات ..

وكان لابد أن ننتظر بعض الوقت حتى يعثروا لنـا على غرفة نظيفة .. أو على غرفة يمكن تنظيفها بسهولة .. وحتى يجدوا الشخص الذى يتطوع لتنظيفها .. لان احدا لا يمكن ان ينظفها بالامر .. فلا احد هنا يأمر ولا احد هنا يطيع .. لا حكومة .. لا دولة .. لا قانون .. فالحكومة منقسمة قسمين .. والقسمان منقسمان قسمين .. ولا أحد يقوى على تنفيذ الاوامر المتضاربة التى يصدرها الرئيس كازافوبو .. والرئيس لومومبا .. والرئيس تشومبى .. ! وارجو ان تعفينى من ذكر أسماء شيوخ القبائل التى يصل عددها الى ألف قبيلة !) ..

وأخيرا قيل لنا أن هناك غرفة ..

وعلينا ان نصبر ساعة اخرى ..

وعلينا ان نشغل انفسنا بأى شىء ..

وفجأة قال واحد منا : لو انفتحت لك طاقة القدر فما الذى تطلبه .

فأجاب احدنا : كوب ماء !

وقال آخر : دشاباردا ! ..

وقال ثالث : سندوتش فول ..

وقلت انا : اطلب اليهـا أن تظل مفتوحة نصف سـاعة .. لان الذى أحتاجه كثير جدا !

وكأن طاقة القدر كانت مفتوحة فعلا فوجدنا الغرفة .. وفى الغرفة سرير .. وفيها مصباح ..

وكأن طاقة القدر انقفلت : فقد كان من الضرورى أن ننام جميعا فى هذه الغرفة .. نحن الاربعة ننام على السرير .. او اثنان ينامان على السـرير .. واثنان ينامان على الارض ..

وفى هذه اللحظة اعترضت على أن تكون أغنية النوم هى احسن الاغانى .. وانما اغنية : ياليل نجومك شهود على لوعتى يا ليل ..

وكان التعب أقوى من خيالي ومن احلامي ومن بقايا الكبرياء..
وارتميت على الأرض .. ولم يكن يفصل بيني وبين الارض غير الصحف الصباحية التي جئت بها من القاهرة .. وتمددت .. وتشجع زميل آخر فنام الى جواري .. اما الزميلان الآخران فقد ناما على السرير .. ولم يقو أحد منا على ان يطفيء النور .. اما من التعب .. واما من الخوف .. وامام الحرص على اصطياد الحشرات والهوام التي تتساقط من السقف علينا .. او التي تكون في طريقها من الارض الى السقف فتفضل ان تخترق اجسامنا .. او تفضل ان تبيت في ملابسنا على ان تبيت في العراء .. أو لعلها قد اشتاقت الى اللحم الابيض ..

وأعتقد انني نمت بعض الوقت .. كأنني قطعة من الحديد الملتهب اسقطت في ماء بارد .. فبعد لحظات من النوم المفاجيء العميق صحوت .. لأجد نوعا جديدا من النار .. فقد تكاثرت الحشرات على عنقي وساقي .. وعرفت أهمية المصباح المضيء.. وفتحت عيني ـ أستطيع ان اقول انني انا الذي فتحت عيني.. وهذا اكتشاف عظيم لأنه يدل على انني قادر على التحكم في أعضائي ـ ووجدت محاولة قتل هذه الحشرات عبثا.. فلا يمكن حصر هذه الحشرات .. انها جيوش .. ولا اعرف بالضبط ما اسمها .. انها ليست كالنمل ولا كالقمل ولا كالبق .. ولا كالصراصير .. انها مستديرة وزرقاء وحمراء ولامعة .. وتمشي في جميع الاتجاهات.. وتوهمت ـ من شدة الخوف ـ ان احداها هي ذبابة تسي تسي .. واظن انني قد رأيت صورة لهذه الذبابة في بعض الكتب .. ومعنى ذلك ان « النوم » ليست اغنيتي المفضلة .. ولكنه نهايتي المحتومة ..

وجدت زملائي جميعا نائمين .. ومنعني الحياء أن أوقظ احدا منهم .. ومنعني اليأس من أن نشترك جميعا في مكافحة جيوش الحشرات الاستوائية .. ولو ايقظتهم فأين نذهب .. ان الليل طويل .. والصمت رهيب .. والاصوات التي تجيء من بعيد لا أول لها ولا آخر .. وربما كان الصوت الوحيد الذي استطعت ان أميزه هو صوت التماسيح .. انها تبكي كالأطفال.. ونحن على مسافة امتار من نهر الكونغو الهائل .. الواسع العميق الثائر .. وهو مليء بالتماسيح ـ اما الصرخات والهمهمات والهمسات .. والصفير والشخير .. والمواء والعواء .. فلا اعرف لها مصدرا ..

اذن لابد ان اسكت ..

ولكن لم استطع.. فأنا ما ازال مرهقا.. والراحة التي حصلت عليها تكفي لأن افتح عيني . وتكفي لأن اشعر بهذه الحشرات المروعة ..

وناديت زميلا نائما على السرير وقلت له : اصح .. اصح ..

قال : ماذا حدث ؟

قلت : لم يحدث شيء ..

قال : يا اخي اسكت .. أنا تعبان

قلت : انا تعبان اكثر منك .. ولكن اريد أن أسألك ..

قال : تسألني الآن ؟!

قلت : ضروري .. المسألة في غاية الخطورة ..

قال : هل انت جاد ..؟!

قلت : جدا ..

واعتدل في جلسته ليسمع مني هذه القصة التي لا اساس لها من الصحة .. قلت : ان الطعام الذي تناولناه من ساعتين كان عبارة عن لحم قرد .. وانا اعرف هذا اللحم . فلقد اكلت لحم القرد اكثر من مرة .. واعرف النتيجة .. اعرفها .. بل اشعر بها .. لقد سبق لي ان شعرت بذلك .. ولولا ان طبيبا انقذني لكنت الآن في حديقة الحيوان بهونج كونج ..

ولاحظت انه فتح عينيه .. واخذته الدهشة .. وسحبته الدهشة من قلب السرير حتى طرفه .. وسحبت قدميه الى الارض .. وسألني : لا أفهم ماذا حدث بالضبط ؟

اذن هو يريد ان يسمعني من جديد .. اذن هو قد صحا تماما .. وهو خائف جدا .. قلت له : لقد اكلت لحم القرد في هونج كونج .. ومن خصائص هذا اللحم ان الذي يأكله تظهر عليه أعراض القرد .. فيهرش وتتغير نبرات صوته ..

وراح ينظر الى يدي وهما تهرشان جنبي ، تماما كما يفعل القرد ..

وبدا الخوف على وجهه عندما وجدنى جلست مقرفصا .. أعلو واهبط ..

وسألنى : والحل ؟

قلت : لا اعرف ..

قال : الا يوجد دكتور هنا .. طبعا هنا يعرفون عدة الكارثة التى تصيب الاجانب .. ولا بد ان لديهم مناعة ضد لحم القرود ..

ولم ازد عن قولى وانا اهرش بشدة على عبارة : لا اعرف .. لا اعرف !

اما الاحمرار الذى كان فى عينى ، واما البريق الذى صاحب هذا الاحمرار فهو بسبب براعتى فى التمثيل .. واحساسى باقتراب النهاية ..

وجاءت النهاية : لقد قفز من السرير .. خائفا وانطلق الى خارج الغرفة ..

وقفزت فوق السرير بكل قوتى ..

وسقط السرير ..

ولم تتم فرحتى !

⊙✣⊙

أى خدمة ياولدى !

اوراق..

فقط عرفت ما معنى كلمة : المستحيل ..

والجواب المستحيل هو كل شىء .. واى شىء ..

فلا امل عندى فى كوب ماء .. او لقمة عيش .. او صابونة اغسل بها وجهى .. مع ان الماء هنا تحت كل مليمتر من الارض او من قشر الشجر . والفاكهة هنا فى الغابة فى عدد اوراق الشجر .. ولكنها ممنوعة .. ويقال مسمومة .. ولكن اهل الكونغو عندهم مناعة ضد السموم وضد الحشرات والزواحف وضد كل عوامل المرض والفناء .. اما لانهم مرضى بالفعل .. او موتى حقيقة .. واما لان هذه الحشرات قد ملت دماءهم وتتطلع الى دماء جديدة .. مع ان تركيب الدم واحد عند كل الناس .. وربما كان الخلاف بين الدم والدم هو فى الغطاء الخارجى .. اى فى البشرة فقط ..

ووجدت مواطنا فى الطريق المرصوف ــ وكل الطرق هنا مرصوفة وناعمة .. الوف الكيلومترات . وقد حرص البلجيكيون على الطرق الكثيرة والمطارات المتعددة .. فالبلاد واسعة ــ وسألته : الا توجد هنا دار للسينما ..

وقال الرجل : كانت عندنا اكثر من دار ولكنها الآن مقفلة .

قلت : السينما فقط .؟

قال : لم افهم ..

قلت : اقصد صالة العرض هى المقفلة اما المطعم فلابد انه مفتوح ..

قال : كل شىء مغلق ..

قلت (ضاحكا ومحاولا ان أكون ظريفا) : اذن بلادكم الواسعة تضيق بالاصدقاء ..

قال : لماذا ؟

قلت : لأنني لا اجد كوب ماء .. ولا اقول فنجان قهوة ..

قال : بل هنا مطعم قريب ..

قلت : مطعم ؟ قريب ؟

لم اسمع كلمة مطعم بوضوح رغم انه قالها .. وانا رددتها .. وكدت أسحب ذراعه .. واسحب يده .. واصبعا من يده واشير الى مكان المطعم .. واشار هو برأسه في اتجاه المطعم .. ولم اجد وقتا لأشكره . وذهبت وورائي الزملاء ..

انه مطعم جيد .. نظيف .. وعلى شاطىء نهر الكونغو .. ولا اعرف اسمه . والاسم ـ كما يقول شيكسبير ـ لا يهم ..

والمطعم له كل ملامح المطاعم الاوروبية الجيدة .. وبه مناضد وترابيزات .. وبه اهم من المناضد اناس .. واهم من هؤلاء الناس : نساء .. نساء جلسن وحدهن .. وامامهن زجاجات البيرة الصغيرة والكبيرة .. ومن بين الزجاجات يتعالى دخان السجائر .. اما اصواتهن فاعلى من هذا الدخان ..

دعني أحدثك عن هذا المظهر المفاجىء للحياة ..

النساء قد ارتدين ملابس بيضاء .. الجيب بيضاء والبلوزة ملونة .. وكل واحدة لا تقل سنها عن ثلاثين عاما ولا يقل وزنها عن ٨٠ كيلو جراما .. ولا يزيد طولها على ١٦٠ سنتيمترا .. اما خط الصدر فمثل خط الارداف اكثر من ١٢٠ سنتيمترا .. واما خط الخصر فنصف ذلك ..

وهن يتكلمن الفرنسية بصوت مرتفع .. واذا صح فهمي لحركات السيدات فان هذه الارتعاشة في العين هي غمزة في اتجاهنا .. وعلى سبيل اللعب والشقاوة حاولت أن اعرف من هو المقصود بهذه الغمزة فأخفيت وجهي وتشاغلت بالكلام .. واستمرت عملية الغمز بالعين اليمنى مرة واليسرى مرة اخرى .. اذن فلست انا المقصود .. وانما المقصود هو كل من يجلس معي .. او نحن جميعا .. فهي غمزة عامة !

وبعضنا قال : ما رأيكم ؟

وبعضنا الآخر قال : هل تظن ان الفتيات سوف يدعوننا الى الغداء ..

قلت : اما الغداء فلا أريده .. انما اريد فنجان قهوة .. ومتنازل عن الغداء والعشاء ..

وغيرت مقعدي .. وادرت ظهري للفتيات .. ولكن اذني كانت تلتقط كل ما يصدر عنهن من كلمات .. وكان الحوار بين الثلاث فتيات تقريبا هكذا :

ـ اظنهم جماعة من اليونانيين جاءوا يفتحون دكانا هنا ..

ـ معك حق .. فاليونانيون موجودون في كل مكان .. ولو غرقت الدنيا لظهر رجل يوناني يبيع أطواق النجاة ..

ـ ولكن يظهر انهم جميعا ليسوا تجارا .. فأغلب الظن ان احدهم طبيب .. فأصابعه رقيقة .. وحركاته بحساب ..

ـ ايهم ..؟

ـ ذلك الذي أعطانا ظهره .. وهو أكثرهم حركة واكثرهم قلقا

ـ طبيب ؟ انه اقرب الى المرضى منه الى الاطباء ..

ـ لعله عاشق ..

ـ وجاء يتوب في الكونغو ..

ـ طبعا على يديك ..

وهنا تقدم جرسون وعلى يديه صينية بها أربعة فناجين قهوة .

وقبل ان اسأله كيف عرف انني اكاد اموت شوقا وعطشا ومزاجا الى فنجان واحد اشار بيده الى حيث جلست الفتيات الثلاث ..

وكان من الذوق أن استدير لأشكر .. وبعد أن أشكر أتساءل كيف عرفن ذلك ..

واستدرت لأشكر .. وانفردت صاحبة الغمزات واللمزات بالشكر .. وبحركة من يدها رفضت الشكر . تماما كان الشكر كرة تنس ويدها مضرب .. واصابني الشكر في دماغي .. فقررت ان أذهب اليها اشكرها .. واعرف منها كيف عرفت .. وهل يمكن أن يذهب بها الكرم لدرجة أن تأمر لنا بفنجان آخر ..

ومددت يدي شاكرا لها .. وشاكرا للاخرى .. وللثالثة .. وسحبت مقعدا وجلست وقدمت نفسي .. وقدمت كل واحدة نفسها : جورجيت .. سوزى .. نادية ..

قلت : نادية .. اسم عربى .. ويمكن عالمى ! ..

قالت : انا عربية .. وعندى كمية كبيرة من البن اليمنى ..

قلت : ربنا يديم العروبة .. والاخوة .. والقهوة .. ويعوضك

قالت : يعوضنى عن ماذا ؟

قلت : عن كل ما عندك من بن !

قالت : كل البن ؟ بعضه فقط !

قلت : وحضرتك ماذا تصنعين هنا ..؟

قالت : عاطلة .. وزميلتي عاطلة جدا .. والزميلة الثالثة ضائعة ..

قلت : الحال من بعضه .. ونحن ايضا نريد ان نعمل ولكننا لا نستطيع .. لا لانه لا يوجد عمل ولكن لانه لا يوجد وقود .. لا ماء ولا طعام ولا ماوى ..

ولم تتحمس الفتيات لهذا الموقف الذى يبدو انه موقف تسول .. مع ان هذه هى الحقيقة ..

وعندما مددت يدى أعتذر واكرر الشكر .. بدا الضيق على وجوه الثلاث فتيات .. اما السبب فهو اننى تظاهرت باننى لا افهم بوضوح ما يقلنه .. ولم افهم معنى ان الثلاث يسكن فى فيلا مهجورة فى آخر المدينة .. وانهن يفضلن ضوء الشموع على المصباح الكهربائى .. وانهن يفضلن الطعام الساخن جدا مع المشروبات المثلجة جدا .. وانهن يتفاءلن برقم سبعة : هن ثلاث ونحن أربعة .. وان اليوم هو يوم ٧ من الشهر السابع .. مجرد صدفة ذكية ! ..

ولم افهم معنى هذه الاقتراحات الوجيهة ..

واعتقد ان كلمة : « دوبشه » وهى كلمة بدائية كونغولية معناها : غبى ..

لقد تكررت هذه الكلمة عشر مرات على الاقل فى كل مرة أعترف فيها : اننى لا افهم ..

وانا اقطع بأن هذا معناها .. لاننى لاحظت ان هذه الكلمة تخرج من الفم مع مط الشفتين الغليظتين وحركة بالقدم على الارض .. تماما كما يبصق انسان على الارض ثم يخفى معالم هذه الجريمة الصحية بحذائه !

وافقت من هذه المناقشة على سؤال رن فى اذنى : معقول نصل الى الكونغو ولا نرى لومومبا ..؟

صحيح هل هذا معقول .

وكان الجواب ان هذا معقول جدا . فنحن لا نعرف اين هو الآن .. ولا أحد يعرف .. انه قد اخفى مكانه عن رجال القبائل وعن خصومه .. وحتى لو عرف الناس مكانه فانهم لا يستطيعون الوصول اليه .. فلا توجد مواصلات .. التليفون وحده لا يكفى .. لان التليفون يصل بين بعض المدن فقط ..

وخرجنا من المطعم وعلى وجوهنا ابتسامات مغتصبة للفتيات الثلاث ..

وعندما خرجنا من المطعم قابلنا الطبيب الدنمركي وسألته : هل هناك أمل فى رؤية لومومبا ؟

فأجاب : لا أمل .

قلت : المواصلات ..؟

قال : أنا اعرف مكانه .. ولكنه هو

قلت : ماله ؟

قال : انه فى حالة نفسية سيئة جدا .. لا يكف عن الصراخ والشراب فى وقت واحد .. وكثيرا ما خرج الصراخ شرابا ، وكثيرا ما تحول الشراب الى صراخ .. الى مغص واغماء ..

قلت : اذن ما الذى تفعله ؟

قال (ضاحكا) : حاولوا اقناعه بأن يكف ..

قلت : أسهل أن اكف انا عن طلب اى شىء منك ..

قال : هل غضبت ؟

قلت : لا جدوى من الغضب فليس أمامنا أحد سواك .. نسأله فلا يجيب ..

ولكن كان من الصعب أن أقتنع باستحالة لقاء لومومبا .. واتفقنا على أن نبحث عن طريقة لرؤيته .. ولكن اتفاقنا لا يهم ولا قيمة له .. ما دمنا عاجزين عن تنفيذ هذا الاتفاق .. او عن الانتقال من مجرد الكلام الى العمل ..

وعندما عدنا الى المطار الصغير حيث توجد بعض قوات الامم المتحدة سألت احد الضباط السويديين : الا توجد طريقة لرؤية لومومبا ..

وكان جوابه : لقد اختفى اليوم ..

وعرفت انه اختفى في مكان .. في أي مكان .. فليس من الضروري أن أعرف اين .. لانه من المستحيل على هذا الضابط السويدي أن يشير بيده المربوطة بالشاش الأبيض الى الغابة .. او الى نهر الكونغو .. لأفهم أن لومومبا قد اختفى في هذه الاماكن

وسألته ان كانت هناك اية صحف.. اية خرائط .. اى جهاز راديو لنسمع أي شيء .. لنعرف اى شيء ..

رفع كتفيه الى اعلى كأنه يلقى بالمسئولية من فوقهما .. وحمدت لله ان المسئولية قد سقطت على الارض .. فكل شيء هنا : على الارض وفى الارض .. فلا احد مسئولا عن أى شيء .. ولا حتى قوات الطوارىء الدولية .. انها قد ارتدت الملابس الأنيقة .. وكدست وراءها العلب الملونة لانواع الطعام المختلفة .. وملأت جيوبها بالسجائر والسيجار .. ووجوهها بالابتسامة وبالضحك ... اما مرتباتهم فتتحول من تلقاء نفسها الى البنوك ..

اما الناس الذين جاءوا لحمايتهم فلا يعرفون عنهم شيئا : لا حكومة ولا شعبا .. ولا لومومبا :

وتساءلت فجأة : ما الذي يمنع ان تكون هذه البلاد اى بلاد اخرى .. فلا يوجد اى دليل على أننا في الكونغو .. فان أحدا من الناس الذين قابلتهم قد ذكر لى اسم هذه البلاد .. بل انني في مطار القاهرة قد سمعت اسم الكونغو من احد رجال المطار .. ولكنه حتى عندما ذكر اسم الكونغو لم يكن يقصد الطائرة التى سوف اسافر بها .. وانما ذكر كلمة الكونغو مرادفا لكلمة هيصة .. واتذكر انه قال بالحرف الواحد : أصلها هيصه .. كونغو !..

ولا توجد هنا لافتة واحدة ..

ودفعني هذا الشك الى ان اقف هذا الموقف المضحك .. فالتفت الى موظف ارتدى القميص والبنطلون وقد ظهر جادا

مهموما .. أو هكذا حاول ان يبدو أمامى .. ربما لانه وجدني مهموما .. أو ربما وجدنى خاليا عاطلا . فانتهز هذه الفرصة ليبدو أكثر اهمية .. وأكثر فائدة لبلاده .. اقتربت منه وأطلقت ابتسامة عريضة فى وجهه .. كأنها يد ممدودة لتحيته .. وقلت : قل لى .. أى بلد هذا ..؟

فأجاب : انه بلد ..

قلت وأنا احاول ان أعرف حقيقة : الذى يراه لأول مرة يتصور انه الكونغو ..

فضحك قائلا : هل تعرف ما الذى قاله فيكتور هيجو عندما كان مريضا .. ونظر الى نفسه في المرآة .. قال : الذى لا يعرفنى يخيل اليه اننى رجل حاقد على فيكتور هيجو ..!

ولما لاحظت أن الموقف لا يحتمل مثل هذا الضحك سألته : هل هذه هى الكونغو حقيقة ..؟

فأجاب : لا افهم ماذا تقصد.. كيف كنت تتصورها.. تماسيح وآكلة لحوم البشر .. اننا يا سيدى لم تأخذ فرصتنا فقط .. وانت تعرف مثل هذا المعنى .. اما انكم فى الشمال قد نسيتم الاستعمار وماذا يعمل فى الشعوب ..

لم أنس طبعا . ولا يمكن ان أنسى ..

واهم من هذا كله ان هذه هى الكونغو ..

ولا اعرف ما الذى استفدته بعد أن تأكدت من ان هذه هي الكونغو .. لم استفد شيئا . ولا أعرف كيف أضيف الى معلوماتي شيئا جديدا . ولو عدت الى القاهرة وسألنى الناس أين كنت فلا يوجد أى دليل مادى على اننى برحت ارض القاهرة .. فلا انا رأيت الخرطوم ولا انا رأيت شيئا فى الكونغو ..

وكأن احد الزملاء سمعنى وانا مشغول بالحديث مع نفسى .. وكأنه رآنى أضرب فكرة بفكرة .. تماما كما أضرب كفا بكف .. وكأننى كنت مسموعا فقال : عندك مانع تقوم بمغامرة .

قلت : أليست هذه مغامرة ايضا ..

قال : مغامرة اخرى محددة .

قلت : مثلا .. تقترح ماذا ؟

قال : تركب هذه السيارة وتخرج بها من المطار .. وهي سيارة للامم المتحدة .. ومفروض اننا جئنا مع قوات الامم المتحدة وتعمل في خدمتها .. ما رأيك بسرعة .. لاتفكر !

ولم يكن عندي مانع .. المهم ان اخرج من هذا الفراغ الذي في نفسي والذي حولي .. وان المس شيئا او احدا .. وان اسأل وان اعرف .. وان اقول وان يقال لي شيء ..

واتجهنا الى السيارة ..

وفي هذه اللحظة وجدنا اربعة من الجنود اتجهوا اليها ايضا .. ولان احدا منهم لم يتصور اننا نفكر في مغامرة : ركبوها دون ان يسألونا شيئا .. لقد كانوا اسبق منا الى تحقيق رغباتهم ..

والذي صنعوه هو رغبة وليس مغامرة ..

واقترحت على زميل لي : الا توجد عندك رغبة في ارتكاب جريمة لن يعاقبك عليها القانون .. لان القانون اختفى هو الآخر في الغابة او في النهر ..

قال : اريد ان اقتل فعلا

قلت : الجوع .. والعطش .. والارق

قال : وهذا الرجل !

واشار الى احد الموظفين من ابناء الكونغو .. فقد ذهب اليه يسأله عن مكان يغسل فيه يديه ..

ولكن الموظف لم يرد عليه .. فظن انه لم يفهم لغته الفرنسية فتحدث اليه بالانجليزية .. ولكن الرجل لم يرد ..

وقررت أن اذهب اليه .. لابد ان هناك شيئا .. ان هناك قصة .. موضوعا .. كلاما .. شيئا مثيرا يهزني من داخلي .. فانا نائم في جلدي .. ارميت في جلدي منذ اكثر من ٢٤ ساعة ..

وعندما اتجهت الى الرجل الكونغولي . لاحظت أن كلمة «تواليت» معلقة على باب مكتبه .. ومعنى ذلك ان هذا المكتب كان قبل ذلك « دورة مياه » ثم تحول بسبب زحف قوات الامم المتحدة الى مكتب مليء بالنشاط والحياة .. أي الى « دورة حياة » .. ولابد ان هذا المواطن الكونغولي قد توهم ان زميلي انما أراد ان يسخر منه ..

وجاء يطلب منه أن يخلي له المكتب بعض الوقت فيتمكن من ان يفعل شيئا ما في ركن من اركان الغرفة !

وعذرت صديقي فقد كان مرهقا . وعذرت الرجل الكونغولي فلم يكن يدري ان المكتب رغم مابه من اوراق . مايزال يحتفظ برائحته القديمة الاصيلة !

⊙✤⊙

وعلى الرغم من أن البقعة التي نتحرك فيها ضيقة .. فانها تدل على كل شيء في هذه البلاد ..

فالشوارع مرصوفة ناعمة وكثيرة .. والمطارات متناثرة في كل مكان .. والمطار عبارة عن قطعة ارض مغطاة بالاعشاب وموجودة في قلب غابة .. او على اطرافها .. والسكك الحديدية ايضا تربط البلاد من كل جوانبها .. والسيارات الى تراها من حين الى حين لا بأس بها .. والبلجيكيون قد أعدوا لانفسهم كل وسائل الراحة والمواصلات اهم المشاكل في الكونغو الواسعة . وهي مريحة جدا ..

كما انهم تركوا شيئا من التزمت في البلاد ايضا . فقد لاحظت ونحن نركب سيارة الامم المتحدة أن بعض المشاة قد احتجوا علينا .. وظننا انهم يحيوننا في حماس غاضب .. او في غضب من نوع خاص .. ولكن لاحظنا ان الاحتجاج تكرر مرة ووراءاخرى .. وكان السبب واضحا : اننا نمشي على الجانب الايسر من الطريق واننا لانستخدم الكلاكس .. او اننا نسرف في استخدامه !

وفجأة — كأنه هبط من السماء — رأيت احد رجال الدين . وهو ككل رجال الدين عنده الكثير من الهدوء والاطمئنان كأنه يحمل في جيبه بوليصة تأمين على هذه الحياة وعلى مابعد الحياة .. ولانه رجل من رجال الدين فهو يمشي في كل طريق وفي كل وقت آمنا مطمئنا .. وقبل ان اتجه اليه ، كان هو قد اتجه الي .. انه طويل القامة .. ابيض اللون .. لامع الجبهة والمنظار ، والاسنان والاصابع .. بها خواتم ذهبية وفضية .. ومددت يدي وهوايضا .. وكأنه توقع ان اقبلها .. ولم افعل فليس عندي سبب يدعوني الى ذلك .. وقال بحكم العادة : ماذا وراءك ياولدي !

وهزتني هذه العبارة العادية بصورة غير عادية . فلم اسمع من احد منذ عشرين عاما يقول لي : ياولدي .. فقد مات ابي ولم اعد اجد معنى لهذه الكلمة بعده او قبله .. ومن الغريب انه تصادف أن يكون ذلك اليوم هو يوم مولد والدي . صدفة .

وفى هذه اللحظة استعرت جو الكونغو .. فالتهبت مشاعرى وتساقطت منى الدموع ..

واقترب منى القس .. ولكنه لم يعرف لماذا حدث ماحدث .. فقلت : عندى همومى الخاصة ..

فأجاب بحكم العادة : أعانك الله عليها وعلى نفسك يا ولدى ..

واستجمعت رجولتى وحاولت ان اكون اكبر من الموقف .. وسألت القس ان كانت هناك اية وسيلة اخرى للحركة ولقاء الناس .. فنحن اقرب مانكون الى اسرى الحرب .. او كجماعة يلعبون لعبة « المساكة » .. فقد سافرنا من القاهرة ولمسنا جدران الكونغو وسوف نعود غدا او بعد غد ..

وهز رأسه يؤكد لنا انها بالفعل لعبة المساكة .. ولعبة الاستغماية .. واننى لو اقمت فى الكونغو سنة اخرى فلن تتغير اللعبة ايضا ..

وحاولت ان اجعل للكلام معنى فسألته عن المكتبة التى يقال انها موجودة فى احد الاديرة .

فأجاب بأنها نقلت من الدير القريب الى دير آخر يبعد سبعين كيلو مترا .. وهذه المسافة تعتبر فركة كعب فى بلاد واسعة شاسعة مثل الكونغو ..

وسألنى عن اى نوع من الكتب فقلت : اى نوع ..

وضحك وهو يقول : اعرف هذا النوع من القراء ..

وسكت .. وهز رأسه فى أسف تقليدى : كنت مثلك ،

اى انه كان مثلى يقرأ اى شىء ثم تاب الله عليه ليقرأ شيئا محددا .. أو ليتوقف عن القراءة !

وقاومت رغبتى فى ان اقول له انى فى حاجة الى فنجان قهوة .. وان زملائى المساكين فى حاجة الى رغيف عيش . . واننا جميعا ـ مثله ـ على باب الله . !

وكأنه على موعد مع اناس آخرين قال : هل تريد منى خدمة ياولدى !

وفقدت شهيتى الى سماع كلمة يا ولدى .. وشكرته .. وفى اللحظة التى تلقى منى فيها الشكر . رفضه بهزة من يده ورأسه .. واستدار بسرعة .. واختفى فى سيارته .. واختفت سيارته الصغيرة فى الطريق الطويل . !





أما الورقة التى فى جيبى والتى تسلمتها عند نزولنا الى مطار مدينة كوكياتفيل فهى تذكرنا بانه من الضرورى ان نلتقى جميعا فى المطار فى مكتب ضابط جزائرى ..

وفى الموعد المحدد ذهبنا ..

المكتب نظيف .. الارض كملابس الضابط نظيفة ولامعة .. وكأنها هى ايضا « مكوية » .. والابواب مثل الزراير نصفها معدنى والنصف الآخر خشبى ..

ولم يقدم لنا فنجانا من القهوة او الشاى او يسألنا ان كانت عندنا اية رغبة فى تناول شىء .. لقد نسى الرجل انه عربى ؛ ولم يعد يذكر الا ملابسه والاشارة المعلقة على كتفه وعلى قبعته .. والا العلم الذى يرفرف ازرق فى ابيض على المبنى . . وكانت محاولة خبيثة من جانبى ان اتحدث اليه باللغة العربية .. وكانت محاولة يائسة منه ان يتكلم بالفرنسية .. هو يذكرنى بانه امم متحدة ، وانا اؤكد له انه عربى .. او انه من الواجب أن يكون عنده شىء من كرم العربى .. وانتهت المباراة الى نجاح الامم المتحدة !

وتنفيذا لقرار الامم المتحدة يجب ان نعود الى القاهرة بعد ساعات .. لان الطائرة التى حملتنا هى الطائرة الوحيدة التى يمكنها ان تعود بنا واذا لم ندرك هذه الطائرة فسوف يفوتنا كل شىء ..

واول مايخطر على البال طبعا ان يتلمس كل منا جواز السفر الذى فى جيبه ويسأل عن ادارة الجوازات وعن تأشيرة الدخول والخروج .

وقد اكتشفت أنى خرجت من القاهرة بلا تأشيرة خروج ..

فلم يسألنا احد عن جواز السفر .. لافى مطار القاهرة ولا فى مطار الكونغو .. ومعنى ذلك اننا – رسميا – لم نخرج عن مصر ولم ندخل الكونغو ..

ولكن ما الذى يمكن ان يحدث لو – بمحض الصدفة – ضبطتنا احدى الهيئات الطبية فى مطار القاهرة وليس معنا شهادة تطعيم ضد الكوليرا مثلا والحمى الصفراء وغيرها من الامراض المتوطنة والوبائية ؟

وسألنا رجال الامم المتحدة .. واقترحوا ان نأخذ سيارة ونذهب بها الى احدى المدن المجاورة .. ولم نعرف اسم المدينة. وانما قيل لنا ان السائق يعرف وهذا يكفى .. وهناك سوف نجد طبيبا .. وعنده تعليمات لاجراء اللازم !

اى اننا موضع اهتمام وتعليمات واجراءات وانها ستنفذ جميعا ..

وفى السيارة لم يتكلم السائق الدولى كلمة واحدة .. لا بالعربية ولا بالفرنسية .. هو ابتلع لسانه ونحن ايضا ..

وحتى عندما نظرت الى مؤشر السرعة فوجدت انه تجاوز المائة والعشرين كيلو ابديت اعجابى بالسيارة وبنعومة الشارع المرصوف .. وكانت هذه حقيقة لا مجاملة فيها ، فلم يرد بكلمة واحدة .. وكأنه توقع منى ان استمر فى الثناء عليه .. فاقترب منى قليلا لعلى ارفع صوتى على صوت الموتور ، ولكنى لم افعل .. وتركته يتوقع وانشغلت بالنظر الى الحقول .. والى الغابات .. وتوهمت اشكالا لحيوانات غريبة ..

وعرفت فيما بعد ان هذه الحيوانات التى رأيتها كانت بالفعل حيوانات متوحشة ولكن الاوصاف التى اذكرها ليست صحيحة .. فهى مختلفة تماما عما رأيتها .. واندهشت قائلا : وهل انا مسطول ؟

فأجاب الطبيب الكونغولى : نعم ..
سألته : ماذا تقصد ؟
قال : من هذه البقع الصفراء على قميصك .
قلت : وما هذه البقع ؟

قال : انها فاكهة نأكلها باحتراس شديد وليس فى هذا الوقت من العام .. لانها لم تنضج بعد .. ولابد ان احدا قد دعاكم بهذه الفاكهة ..

وضحك . ولم أضحك . وشعرت بدوخة مفاجئة .. اما بسبب الحقنة التى غرسها فى جلدى .. او بسبب المشرط الذى اسال دمى ..

وتذكرت ان فتيات الكونغو قد ملأن جيوبنا ببعض هذه الثمار .. وظننا – بحسن نية وغرور اكيد – انه الاعجاب .. او الحب من اول نظرة .. ولم تكن هذه الثمار فى طبق او فى ثلاجة .. وانما كانت تتدلى من شجرة ادخلت فروعها الى داخل المطعم .. ومن الغريب ان هذه الفاكهة الصفراء لذيذة .. وان كانت لاسعة الطعم .. كأنها نوع من الجوافة المطعمة بالمانجو والمرشوش عليها القليل من المستاردة والشطة .. لذيذة ..

وهى تصيب من يأكل الكثير منها بشىء من الهلوسة ..

وبدأنا نراجع تصرفاتنا .. واخذنا نضحك .. ولم يتسع وقتنا لنسأل ان كان هذا الضحك الشديد الذى اسال عيوننا هو من آثار هذه الفاكهة .. او انه شىء طبيعى ..

وحاول بعضنا ان يعثر على هذه الشجرة او اية شجرة مماثلة لها .. ولكنه لم يجد ..

ولم يكن من الصعب علينا تغيير تواريخ الشهادة الدولية التى صرفها لنا الطبيب الكونغولى .. والا حجزونا فى المحجر الصحى فى مطار القاهرة اسبوعين آخرين .. وقد حدث بالفعل لبعض الزملاء .. والحقيقة اننى لم اكن فى حاجة الى هذه الشهادة الدولية فعندى شهادة صالحة للخمس السنوات القادمة .. ولكن لم يتسع وقتى لاحضارها معى ..

وبسرعة عدنا .. وبسرعة نزلنا من السيارة . ووجدنا الطائرة فى انتظارنا ..

ولاول مرة ارى الطائرة بوضوح .. انها جراج واسع .. ارضها معدنية وجدرانها كذلك .. وقد اصبحت نظيفة وشديدة البرودة .. واحسست كأننى عريان ملط .. وان ملابسى لاتحمينى من اى شىء .. المقاعد المعدنية تلسعنى كالجلوس على البلاط .. جدار الطائرة كالمقاعد بارد .. ومن قلب الطائرة يرتفع سلم الى كابينة القائد .. ومن كابينة القائد ارى بعض الوجوه .. انهم اكثر من طيار .. وفى الكابينة حركة غير عادية .. لقد تحركت مراوح الطائرة .. واحدة بعد واحدة .. وزمجرت الطائرة وبدون اية تعليمات تحركت

الطائرة الكبيرة جدا .. ومشت على الارض الخضراء .. وارتفعت فى الهواء .. الى اين ؟ لا احد يعرف بالضبط .. لم يدر بيننا اى كلام .

ولا تزال الحركة غير عادية فى كابينة القائد ..

والآن يمكننى ان اصف هذه الحركة .. انهم يتناولون طعام الافطار .. يفتحون علبا كبيرة .. العلب من الصفيح .. ويبدو انها مثلجة وفى ايديهم سندوتشات كبيرة مملوءة باللحوم الباردة .. ومعهم فطائر من التفاح .. وكل شىء عادى جدا .. فهذه الطائرة بيتهم المتحرك .. ولا علاقة لهم بالركاب سواء كانوا مدنيين او عسكريين .. انهم جماعة من الامريكان فى مهمة دولية ..

وربما كان الشعور بالجوع والعطش هو الذى جعلنا نشعر بالبرودة اكثر .. وحاولنا ان نغطى هذا الموقف بالكلام .. ولكن من الذى يسمع منا .. ان صوت الطائرة صارخ .. ثم ماهذا الكلام الذى يمكن ان يدور بيننا .. فكنا نضحك بلا سبب .. او كنا نضحك للسبب الذى عرفناه اخيرا ..

ونهضت وتسللت الى الكابينة : صباح الخير .. ورد الكابتن : صباح الخير .. بيرة .

قلت : شاى ..
قال : حالا ..
قلت : شكرا .. ولزملائى ايضا ..
قال : حالا ..
وفعلا جاء الشاى الساخن .. وبهذه السهولة ..

اذن من اين جاءت هذه الصعوبة التى نتعذب بها .. الشاى سهل .. والشراب سهل .. والطعام سهل ..

ولكن احدا منا لم يحاول ولم يطلب .. ان كل شىء موجود وراء هذه الابواب وهذه الستائر .. وفوق هذه السلالم .. ووراء هذه الوجوه .. ولكننا لم نحاول ان ندق بابا وان نصعد سلما وان نقول صباح الخير وان ننتظر الرد ..

وقال : سندوتش ..
قلت : ان كان ممكنا ..
قال : ممكن ..
قلت : ولزملائى ايضا ..
قال : ولصديقاتكم .. ان كانت لكم ..

وضحكت . وشجعنى الشاى والسندوتش والدفء الموجود فى الكابينة والالفة الانسانية التى تتم بسرعة بين الناس دون ان اعرف من هو .. ولا هو يعرف من انا .. انا فى مهمة وهو فى مهمة . ونحن الاثنين فى طائرة واحدة فوق الكونغو .. ونتفاهم بلغة دولية .. لغة الذوق والمجاملة .. لغة مفرداتها الابتسامة والكلام والشاى والخبز .. وتطرقت فى الكلام ورويت له قصة فاكهة الهلوسة .. وضحك .. وتمنى لو انه ذاقها .. واخرج ورقة وقلما ليكتب اسم الفاكهة .. ثم اعاد القلم والورقة الى مكانهما عندما عرف اننى لا اعرف .. ولكن الاسف كان واضحا على وجهه . . ولكن لحسن الحظ لم يصل الى درجة ان يسحب منى الشاى والسندوتش . .

واشار من نافذة الطائرة الى الارض .. وقال : هذه بحيرة فكتوريا .. طبعا !

من هنا ينبع نهر النيل العظيم ..

ليس شكل البحيرة واضحا . ولكن الماء لونه ازرق تركوازى .. وتوجد زوارق صغيرة .. او حيوانات كثيرة بالقرب من الشاطىء .. هذه الحيوانات هى وحيد القرن .. السيد قشطة .. عددها كثير .. وان كانت تنقرض هذه الايام .. وكذلك التماسيح .. فالمفروض ان يضع التمساح بيضه على الشاطىء وقتا طويلا .. ولكن كثرة الحركة السياحية فى جانب من هذه البحيرة يجعل التمساح يهرب الى الماء ويترك البيض فتجىء بعض الطيور او الحيوانات المفترسة وتأكل البيض ..

وسألنى كابتن الطائرة ان كانت القعدة مريحة .. واشار الى حيث كنا نجلس فقلت : عذاب فى الذهاب وعذاب فى الاياب ! .

ولم يهتم .. فهو كرجل عسكرى .. قد اعتاد على هذه المقاعد الموجعة لكل خلية فى الجسم .. واشار الى زميل عجوز وقال : ادوارد ..

وجاء العجوز ادوارد انه يشبه العمدة فى افلام رعاة البقر .. طويل القوام .. مقطب الوجه .. اذا تكلم اهتز .. وتمايل .. ولكن يده دائما قريبة من مسدسه .. ولم تكن على صدره النجمة المعروفة .. وجاء ادوارد ونظر الينا .. كأنه يرانا لاول مرة ..

وسأله : التكييف متعطل ..

ورد عليه ادوارد ببرود اشد من ارضية وسقف الطائرة : انه لا يعمل ..

وهنا اعتذر الكابتن واصلح هو جهاز التكييف !

وفى لحظة تحولت الطائرة الى غرفة دافئة مريحة للاعصاب .. وأصبح الهواء كأنه نعومة الحرير والمخدات والالحفة .. ونامت كل خلية حية فى جسمى .. وهتفنا جميعا لادوارد : الله يخرب بيت ابوك يا عمدة ..

وسألنى : ماذا تقولون ..

فقلت : النشيد القومى ..

فقد كان فى استطاعة ادوارد هذا ان يشغل التكييف منذ ساعات ويرحمنا من البرد الشديد الذى دغدغ عيوننا ودشدش بقية الاعضاء ..

اما انا فعندى مقياس للبرد لا يخطىء : انى اشعر به فى الجانب الايمن من بطنى ..

واختفى احساسى بالجانب الايمن من بطنى .. واحساسى ببطنى .. اذن فالجو دافىء والسماء صحو .. والشمس مشرقة .. وما تزال بحيرة فكتوريا تحتنا .. وما نزال فى المناطق الشمالية من الكونغو .. والطائرة متجهة الى السودان ..

ولكن الحالة المعنوية احسن ..

والكلام الذى دار بيننا هو من وحى الدفء .. ومن وحى الشاى والسندوتش .. ودفء العلاقات الانسانية التى تولدت بسرعة .. حتى ادوارد العجوز ما يزال جالسا عند أعلى السلم وقد وضع ساقا على ساق واستعاد ذكريات حزينة .. واضح انها حزينة .. وراح يغرقها فى اكواب البيرة الباردة .. ويرفع صوته بالغناء .. انه مبسوط ..

وعندما اهتزت الطائرة فجأة .. هز رأسه واشار بيده .. اشارة لم نفهمها .. وبدأت الطائرة تهبط .. ومن النافذة بدأت الارض الخضراء تقترب .. والغابات الكثيفة فى كل مكان .. وهبطت الطائرة .. ولكن المطار مختلف .. فله ممرات .. وهناك برج .. ووقفت الطائرة ، وانفتح الباب الخلفى .. ونزلنا من نفس المكان الذى نزلت منه عربات الجيش والذخيرة المصرية .. واشار الينا

ادوارد ان ننزل .. وقال لنا : الا اذا كان احد منكم يريد ان يبيت هنا ..

ولم يكن عندنا كلام نقوله ..

ولكن غلبت علينا الرغبة فى ان نعرف اين نحن .. وان نتفرج واذا لم نجد مكانا عدنا الى الطائرة .. اما هو فبحكم العادة أخرج بطانية .. او مرتبة .. ودخل فيها .. وشد السوستة .. ونام فى جانب من الطائرة .. ويبدو انه نام بالفعل .. وفى دقائق .. ونزلنا من الطائرة .. ووجدنا البوفيه .. البوفيه نظيف .. والجو نفسه منعش .. والمكان مرتفع .. والجرسونات يمشون حفاة ولكنهم يلبسون طربوشا فاقع الاحمرار .. والزر الى الامام .. والضحك على وجوههم جاهز .. واية اشارة اليهم تجعلهم يضحكون اكثر .. انهم كأبناء الفلبين واندونيسيا يضحكون على القاضى وعلى اللبان .. وليسوا كأبناء اليابان الذين يضحكون بحساب : فهم يضحكون ليعطوا لانفسهم ولغيرهم فرصة التفكير فيما بعد ذلك .. أى فيما بعد الضحك ..

فالضحك فى اليابان مثل هذه المسافة البيضاء التى جاءت فى هذا السطر .. انها مسافة وبعدها يجىء الكلام ..

وهذا البوفيه مشجع .. والضحك مشجع اكثر .. والحالة المعنوية عالية .. ولا أوجاع فى البطن ولا فى الراس .. وقلت لواحد منهم : هل نحن فى كينيا ؟

والآن اريد ان اصور ما الذى حدث فى البوفيه .. اريدك ان تتصور ان قنبلة من قنابل الغاز التى تبعث على الضحك وتسيل الدموع قد انفجرت فى كل واحد من الجرسونات السبعة الموجودين فى البوفيه .. وان هذه القنبلة متعددة المراحل .. وان مرحلتها الاولى قد انفجرت فى العينين .. والثانية فى الفم .. والثالثة فى البطن .. والرابعة قد انفجرت فى البنطلون .. وان هذه القنبلة اسمها : هل نحن فى كينيا ؟ ..

لقد تعالت اصوات الجرسونات بالضحك والدموع .. والتساقط على الارض ..

وبدأ الزملاء يسألوننى عن النكتة التى قلتها .. وكررت ما قلت .. وانفجروا هم ايضا .. وبعد ان زال اثر القنابل المضحكة اقترب واحد منهم وقد عاوده العبوس الذى يعقب الانفعال الشديد وقال : نحن فى أوغنده !

ولم أشرح له اختلاط أوغنده وكينيا في رأسي .. فلا أحد قال لنا أين هبطنا .. وحدود أوغنده وكينيا متجاورة .. ولا اعرف ان وصف أوغنده بانها كينيا يبعث على الضحك . ولكن ما داموا قد ضحكوا ؛ فلا بد ان هذا مضـــحك .. تماما كما تذهب الى سوهاج وتقول لهم : مش دى اسيوط !

ولا بد ان اهل اوغنده وجدوا في جهلي فرصة سعيدة لشعورهم بالتعالي على رجل ابيض جاهل .. ومن المؤكد انني اســـعدتهم ورددت لهم اعتبارهم . ولو كنت اعرف اشياء اخرى تســـعدهم لفعلت ؛ فان الشـــاى الذى قدموه قد انعشنى واسـعدنى .. وشربت كوبا وراء كوب .. وفي كل مرة امتدح الشاى الانجليزى .. بل انني تطوعت ودخلت البوفيه وصنعت الشاى على الطريقة التى تعلمتها في جزيرة سيلان .. ومن خبراء الشاى .. وما زلت حتى اليوم أسير هذه العادة ..

ولما سألوني كيف تعلمت الشـاى ..

وجدت الفرصة التي أحولهم فيها الى تلامذة .. واسترد فيها مكانتى كواحد لديه الكثير من المعرفة في هـذه الصناعة التى ياكلون منها العيش .. ولكى أؤكد لهم ان الخلط بين كينيا واوغندا من الجو ممكن جدا .. وكثيرا ما اسقطت الطائرات في الحرب قنابل على أهداف خاطئة .. قلت : تعلمتها في شركات الشاى في مدينة كولمبو بسيلان .. وفي مقاطعة دار جيلنج في الهند ..

ورويت لهم كيف ان احدى شركات الشاى في سيلان قد طلبت مني أن اعطيها عنوان عشرة من اصدقائى في جميع أنحاء العالم لكى يبعثوا لهم بهدايا من الشاى الفاخر الذى لا يباع في الاسواق .. وانني أعطيتهم عناوين عشرة من الاصدقاء .. وانني عندما عدت الى القاهرة وجدت الشركة قد أرسلت لكل واحـــد منهم كيلو جرامين من الشاى الطـــويل المعطر .. وقيل لى انه شراب الملكة اليزابيث المفضــــل .. وكم كان حزنى عميقا .. وكم كانت فرحة ابناء أوغنده هائلة .. عنــــدما قلت لهم انني نسيت ان أعطى للشركة عنوانى ! ..

لكن هذه الشركة عندما علمت بهـذا المقلب الذى اوقعت نفسى فيه ارسلت لى كمية أخرى من الشـاى المعطر ..

ولا أعرف ما الذى منع هؤلاء الاوغنديين أن يطلبوا منى ان أعمل معهم في البوفيه .. ولا داعى للعودة الى القاهرة ..

وسألت جادا : أين نحن ؟

قالوا : انت في أوغنده .. وهذه مدينة عنتيب ..

لا اعرف الكثير عن هذه المدينة .. ولو تركنى وحدى هـــذا الجرسون الذى أعجب ببراعتى في صناعة الشاى لعصرت ذاكرتى بحثا عن دلالة هذه المدينة .. الآن فقط استطيع ان أجد عندى بعض المعلومات .. فهذه المدينة كانت تابعة لمصر يوما ما .. فقد كانت العاصمة القديمة لاوغندا .. اما العاصمة الآن فهى كمبالا التى يعرفها عشاق كرة القدم .. فقد أجريت فيها مباريات كبرى بين مصر ودول الدورة الافريقية .. والجيوش المصرية ايام الخديو اسماعيل قد رفعت العلم المصرى على هذه المدينة وعلى غيرها .. ويوجد اثر للمصريين في اماكن مختلفة من البلاد ..

ويمكنني ان افسر سبب الضحك الغريب الذى كان تعليقا على اسمي عندما سألنى احد الجرسونات عن اسمى . ونحن منهمكون في صناعة الشاى ؛ فقال : آه ؛ أمين باشا ؟!

وسألته : كم عمرك ..

قال : سبعون عاما ..

وكان يبدو في الاربعين .. وسيظل يبدو كذلك ما دام يضحك طول الوقت ويغسل همومه اولا بأول ..

وأمين باشا هذا الذى اضحكه .. هو أمين باشا محمد .. وهو الطبيب الالماني الذى عينه غوردون باشا حاكما على المحـــافظة الاستوائية بأمر الخديو اسماعيل يوم كان العلم المصرى يرفرف على هذه البلاد .. وامين باشا هذا كان طبيبا ممتازا .. وكان يتقن عشر لغات وعشرات من اللهجات الافريقية .. وقد اشتغل فترة طويلة في قصر السلطان بتركيا .. ولذلك اتخذ لنفسه هذا الاسم التركى .. وان كان لم يعتنق الاســـلام . واسمه الحقيقى هو ادوارد اشنتسلر وقد أوفدته الحكومة الالمانية ليوسع حدودها الى ما وراء تنجانيقا التى كانت مستعمرة المانية .. وحاول كثيرا .. ولكنه سقط في أيدى تجار الرقيق فقتلوه سنة ١٨٩٢ ؛ وكان في الثانية والخمسين من عمره . ولم يترك كتبا عن مغامراته ؛ وان كانت بعض المجلات قد نشرت مقالات كثيرة يتحدث فيها عن هيامه بجمع النباتات النادرة والحيوانات الغريبة .. ويقال انه تزوج فتاة من مدينة عنتيب ..

وسألت الجرسون الذى أضحكه اسمى : هل تعرف أمين باشا جيدا ..

اعدت عليه السؤال عندما لم الاحظ ما يدل على معرفته ايه الرجل فقال : اعرفه .. انا اسمى امين باشا محمد .

قلت : **مسلم** ..
قال : أولادى فقط ..
قلت : **وانت ؟** ..
قال : مسيحى ..
قلت : **وزوجتك** ..
قال : مسيحية ..
قلت : **وكيف حدث ذلك ؟**
قال : يحدث هذا كثيرا ..

ولم اجد عنده تفسيرا .. ولكن يبدو ان هذا يحدث كثيرا .. أن يكون الاب مسيحيا وأولاده مسلمون . ويحدث كثيرا أن يحتاج الانسان الى من يشرح له .. لا يجده .. ويسكت دون أن يفهم ! ..

الحمد لله .. شربت واكلت وضحكت واضحكت .. واكتشفت بسرعة ايضا انها مشكلة جديدة : أين ننام !

وقبل ان نفكر فى النوم يجب أن ندفع ثمن الشاى .. وثمن السندوتش والحلوى التى جاءت فى حماية الشاى وبسببه ..

وتكرر الضحك بنفس القوة عندما أخرجت من جيبى بعض الفرنكات الكونغولية .. وحاولت ان ادفع .. وعرفت بسرعة ان هذه الفرنكات تشبه « بونات » بوفيه محطة مصر .. وانا اشبه من يأخذ هذه البونات ويعطيها لجرسون فى محطة روما .. مضحكة .. وانا مضحك ! ..

وكانت فرصة لامين باشا ان يصر على ان تكون الحساب عليه هو ..

وشكرنا امين باشا وتمنينا له طول العمر والصحة وان يظل بيته عامرا ..

وقبل ان نفكر فى أين نذهب .. هل نتفرج على المدينة .. أو هل ننام مبكرا فى الطائرة .. وما دامت الفلوس الكونغولية لا تنفع فما

الذى نفعله .. فيسر لنا رجل انجليزى .. يبدو انه من رجال **المطار** ..

وسألنا : من مصر ..

قلت : نعم !
قال : كم يوما ستبقون هنا ..
قلنا : حتى الصباح ..
قال : ما مشروعاتكم ؟ ..
قلنا : اولا نبحث عن مكان ننام فيه ..
قال : وثانيا ؟ ..
قلنا : نتفرج على المدينة ..
قال هو فى رقة جادة : اذن نبدأ بدنيا ؟ ..

ومشينا معه ووراءه دون ان نسأله من هو وما شأنه .. ولكن **لم يكن من** الصعب أن نعرف انه احد رجال السلطة جاء لمراقبتنا **بصورة رقيقة** . واخذنا فى سيارته . وذهبنا جميعا الى احد محلات **البقالة** .. المحل عندى .. واليونانيون هنا وفى كل المستعمرات **البريطانية الاخرى** .. وشربنا شايا .. وفى المحل قابلنا عددا من **المواطنين** وسألونا عن بلدنا .. وماذا نصنع .. ومن الغريب انهم **سألونا عن** بعض الصحف المصرية .. وبعض الكتاب المصريين .. **وعن موضوعات** محددة نشرتها الصحف المصرية انهم من طلبة **الجامعة** الازهرية !

وانصرفنا .. فى سيارة الضابط الانجليزى .. واتجه بنا الى **احد الفنادق** .. ووصلنا الى باب الفندق .. وتأكد من دخولنا **ومن وقوفنا** امام صاحبة الفندق .. ومن اننا كتبنا استمارات **الاقامة** وسجلنا اسماءنا وأرقام جوازات السفر .. وودعنا الرجل **وشكرناه** .. ووعدنا بالعودة فى الصباح لنرافقنا الى الطائرة ..

والفندق من طابقين .. وككل الفنادق الاستوائية .. ملىء **بالاشجار** .. وعلى النوافذ ستائر من السلك ضد الحشرات **والبعوض** بصفة خاصة .. وفى كل غرفة جهاز تكييف . وفى الطريق **الى غرفتنا** مررنا بالمطعم .. ثم حبسنا أصواتنا وأنفاسنا عندما **وجدنا المطعم** مليئا بالناس ولكن احدا لا يسمع لهم صوتا .. وهم **جميعا** بالملابس الكاملة .. الرجال بالبدل والكرافته .. والسيدات **بالسواريه** .. ونحن قد ارتدينا عباءته « الفقرينه » .. والهدوء **والدفء** والانوار الخافتة والاطعمة الشهية والاكواب الزجاجية

الطويلة .. والالوان على الجدران والمقاعد والستائر والفساتين والليل والجوع والحرمان يحرك المعدة والقلب ويجعل النوم حراما على كل من عنده احساس او ذكريات ..

ولكن لا وقت للذكريات ..

ويظهر انه لا مفر من الذكريات المؤلمة على الاقل .. فعندما تأملت وجه السيدة صاحبة الفندق .. كان الوجه مألوفا .. لا اعرفها .. ولكن اعرف مثل هذه الملامح .. وسألتها : من اين ؟

قالت : من القدس ..
قلت : العربية ؟
قالت : لا ..
قلت : .. وتتكلمين العربية طبعا ؟ ..
قالت : طبعا ..
قلت : بايخة ! ..

ولم اقلها بصوت مرتفع .. فقد علق بعض الزملاء على ملامحها وعرفوها .. وعلى انفها وعلى شعرها المنكوش وعلى التكشيرة التي تزداد لحظة بعد لحظة .. وعلى انها نبهت الى ضرورة التزام الهدوء .. الذي التزمناه بالفعل ! ..

وفي الغرفة وجد كل منا ما يحتاج اليه ..

وجدنا سلالا من الفاكهة .. فاكهة نعرفها وفاكهة لا نعرفها .. واهم من هذا كله وجدنا الدش .. واهم من الدش وجدنا السرير .. واهم من السرير وجدنا النوم ..

وكان الصباح جميلا ..

كل شيء هادىء .. الغرفة نظيفة .. الالوان بيضاء السرير والغطاء .. والجدران .. والاكواب .. والالوان كلها خضراء ووردية .. ومن النافذة بدت الحديقة فاتنة .. الاشجار مليئة غنية الاوراق والثمار .. والطيور ثرثارة ولكنها متنوعة .. والفندق يشرف على المدينة .. ويتوارى خلف الاشجار حتى لا يبدو مشرفا بالفعل ! ..

ودق جرس التليفون في الغرفة .. ولم تمتد اليه يد .. فنحن لا نتوقع شيئا ولا أحدا .. ونحن نعرف مقدما ما سوف يحدث .. وان كنا نتمنى ان يحدث شيء يجعلنا نبقى هنا يوما او يومين ..

وفي التليفون سمعت ان الضابط الانجليزي في انتظارنا .. انه ضابط امن نشيط .. انه يريد ان يطمئن على اننا سوف نسافر اليوم ، ولم يقل في التليفون انه يتعجل احدا .. وانما فقط يريد ان يقول لنا انه موجود ..

وكان في نية احد الحاضرين ان يسأل عن فول مدمس .. ولكنه تراجع عندماتذكر هذه السيدة صاحبةالفندق .. واكتفى بالشاي والبيض والزبدة واللبن ..

وفي هذا الجو الاستوائي قررت أن اتناول افطارا من نوع خاص .. يذكرني بأيام الهند وسيلان واندونيسيا .. فطلبت بيضا بالطماطم والفلفل الاخضر والاحمر..وطلبت كوبا من عصير الطماطم بالشطة .. ثم طلبت شرائح من الاناناس .. وشرائح من البابايا .. وبعض البندق الهندي .. وكوبين من الشاي الانجليزي «المعنبر» ولا بد من اضافة هذه الصفة لان لونه احمر ذهبي ورائحته كرائحة العنبر الوردي ..

ووجدت في هذا الافطار تعويضا سخيا عن كل ما حدث في الاربع والعشرين ساعة الماضية .. ورضيت عن التعويض ؛ واسترحت نفسا وجسما .. وكان هذا واضحا تماما في مصافحتي للضابط الانجليزي الذي بدا أكثر انتعاشا منا جميعا .. وكان من الواجب ان أسأله كيف نام واين وماذا افطر صباحا لعلنا نعرف سر هذه الحيوية والشباب واليقظة . ولم أجد مبررا لذلك فالذي اشعر به ارضاني واشبعني وامدني بقدرة على احتمال الطائرة حتى نعود الى القاهرة ..

ونقلتنا السيارة الى المطار .. والسيارة هي التي نقلتنا وليس الضابط .. فلم نشعر به .. لانه لم ينطق بكلمة واحدة .. كأنه يتوقع ان نقول شيئا .. او كأنه يدخر قواه لينفقها في عمله .. أما نحن ففي الطريق الى عمله .. وعندما دخلت السيارة أرض المطار رأينا الطائرة .. وقد وقف بمدبابها الخلفي ذلك العجوز ادوارد وواضح انه ينتظرنا .. تماما كما يفتح بقال ريفي دكانه وينتظر الزبائن الذين لا يفتحون النفس الى العمل كأن يشتروا بقرش شاي وبقرشين سكر .. واشياء تافهة أخرى ..

وصافحني الضابط الانجليزي وشكرناه وتقبل منا الشكر الذي يتوقعه ويستحقه .. ايا كان السبب .. ودخلنا الطائرة .. واقفل الباب .. ودارت المحركات .. واسندنا الظهور الدافئة الى الجدران

الدافئة . ومددنا أقدامنا . وتعالت أصواتنا بالضحك وبالكلام ولم نلتفت الى الكابتن او العجــوز ادوارد .. ولا نعرف كيف ان المسافة بين عنتيب والقاهرة كانت قصيرة الى هذه الدرجة رغم انها استغرقت سبع ساعات ..

ومن النافذة رأينا القاهرة . وهبطت الطائرة . وصافحنا الكابتن وزميله والعجوز ادوارد . ونزلنا في مكان بعيــد من المطار . ولم يكن هناك آية سيارة تنقلنا من مكان الطائرة الى المطار .. وكانت المســافة طويلة ..

.. وفي وضح النهار ظهر الاعياء علينا .. وعلى ملابسنا المتكسرة المليئة بالبقع .. وعلى احذيتنا التي تلطخت بالطين .. ودخلنا المطار وسـألونا : من اين ؟

قلت : من الكونغو .

اما كيف خرجنا .. وكيف نزلنا وكيف صعدنا وكيف عدنا .. فالجواب : ان كل شيء تم بالليل وبسرعة .. بالليل هنا .. وبسرعة هناك .. حيث لا حكومة .. لا جيش ولا بوليس .. وحيث البلاد مفتوحة كالسماء .. لا احــــد يعرف الداخل ولا الخارج ولا احد يهمه أحــد ..

اما شهادة التطعيم والحقن فهي التي فتحت الباب الخارجي الى البيت .. بينما ظل بعض الزملاء في المحجر الصحي أســـبوعين آخرين .. فلم يتمكنوا من الحصول على شهادات دولية .. أي انهم سافروا الى الكونغو وعادوا في ثلاثة أيام .. ولكنهم لن يسافروا من مطار القاهرة الى القاهرة نفسها الا بعد ١٤ يوما !

وفي الطريق الى القاهرة سألني أحد الزملاء : نفسك في ايه دلوقت ؟
قلت : بصراحة واخلاص .. نفسي أسافر الى الكونغو ..

وكمن سمع ــ نكته ــ بايخة قال الزميل : أنا حرمت أســـافر معاك .. انت رحلاتك انتحارية ! .

ليست انتحارية .. ولكن أريد ان أعرف ان أفهم .. ولم يتسع وقتي لكي أفكر وأدبر .. وأتدبر .. فكأننا ذهبنا الى زيارة اناس قد دخلوا الفراش وشربوا عشرات من الحبوب المنومة بينما شربت عشرات من فناجين القهوة السادة استعدادا لهذا اللقاء والحوار .. وكل الذي دار بيننا هو اننا تجاذبنا الغطاء .. أنا اسحبه عنهم وهم يشدونه .. وغلبني التعب وغلبهم النوم ..

... ثم غلبنا جميعا !.





صنع في ألمانيا!

أكبر غلطة لغوية !

كان ذلك فى الحفلة التى اقامها مصدرو الارز فى مدينة همبورج .. جاء دورى فى الكلام . فقلت : انى قد رايت المانيا ١٥ مرة .. وفى كل مرة اجد تغيرا عجيبا .. الشوارع المنهارة المظلمة تحولت الى فترينات باهرة .. والعمارات كأنها اختفت تحت الارض بسبب الغارات الجوية .. ثم اعيدت الى وجه الارض .. ان الالمان يطبقون شعار دافنشى الذى قال : اننى لا اصنع التماثيل اننى اكشف عنها الحجر فقط .. انها معجزة ؟

وواضح من الذى قلته اننى معجب بالعبقرية الصناعية . والمعمارية الالمانية ..

ولكن الالمان لم يفهموا هذا المعنى الذى قصدته .. فقد نهض واحد منهم غاضبا ساخطا ليقول : انها ليست معجزة ياسيدى .. ان المنديل الذى كنت امسح به عينى كنت امسح به انفى أيضا .. اننى حملت ابنى وزوجتى على ظهرى من برلين حتى وصلت الى هذه المدينة ..

وجلس .. ولم افهم شيئا ..

وانتهت الحفلة . ولم اتمكن من ان استوضحه .. ولا اعرف أين المكان الذى اوجعته من جسمه أو من نفسه .. اننى لم اتعرض الى قفاه أو ظهره . . ولم اقل انه كالحصان يستطيع ان يجر عربة .. وان يحمل زوجته وابنته على قفاه .. ولم اقل أنه من الواجب ان يفعل الانسان ذلك ..

وسالت عن سبب غضب هذا الرجل من اعجابى بالشعب الالمانى ونشاطه القريب . وكان الاعتراض على استخدامى لكلمة « معجزة » . أنا استخدمت الكلمة بحسن نية .. وهو قد فهم شيئا آخر .. اما المعنى الذى أقصده فان الذى حدث فى المانيا شيء لايصدقه العقل .

اى شيء فوق العقل العادى .. اى شيء يعجز عنه اى انسان عادى .. او اى شعب عادى !

اما الذى فهمه هو — وهو احد احفاد الفلاسفة الالمان كانت وهيجل ونيتشه — فهو ان المعجزة معناها ان السماء هى التى تدخلت فى كل شيء . وان الشعب الالمانى لم يفعل اى شيء . وقد يكون من المعانى التى خطرت على باله ان الامريكان — أى قوة خارجية — بفلوسهم وصناعتهم — هم الذين انقذوا الشعب الالمانى ..

والمعنى الاول لم يخطر لى على بال .. بينما المعنى الثانى وهو ممكن ، فلم يخطر لى أيضا على بال . وانما الذى احسست به هو هذا الفارق بين المانيا بخرائبها فى سنة ١٩٤٩ والمانيا التى رايتها بعد ذلك فى سنة ١٩٦٧ ..

وهذا الموقف يضعنى فى المكان المناسب لانهم اوضح واسلم للالمان .. فهم ماديون . مكتئبون .. أو لكى اكون عادلا : اقول ان طريقتهم فى الكلام والفكر والحياة مختلفة عنا . وليس من الضرورى ان يتفق العالم كله من اوله لآخره معنا لكى نفهمه — او لكى افهمه — على النحو الذى يريحنى ! ..

وهذا يجعل المسافر الى المانيا او الذى يعيش فيها ان يسال نفسه من هم هؤلاء الناس ؟ ماهو تعريف المواطن الالمانى . ربما كان معناه : النظام والطاعة والهمجية والقسوة والطاقة على العمل والصبر والغلظة وحب الموسيقى وحب الحيوانات والاندفاع والغموض ..

واذا قارنت الالمانى بالفرنسى وجدت هذا الاختلاف الهائل بين شعبين تجاوروا مئات السنين .. ولكن ماتزال المسافة بينهما ابعد بزمان جدا مما بين باريس وبون .. فالرجل الفرنسى — من وجهة نظر الالمان — : مبهدل فى مظهره ولكنه ذكى .. لاصبر له على العمل ولكن اذا عمل كان فى غاية الكفاءة .. ولديه قدرة عقلية فذة .. وصحيح ان الفرنسى ليس عاطفيا كالالمانى ، ولكنه عاشق من الدرجة الاولى !

اما راى الفرنسى فى نفسه فهو انه اسمى واكثر انسانية ، ولكنه ينظر بحسرة الى الانجازات العظيمة التى حققها الالمان فى كل العصور !

تصادف ان ذهبت الى مدينة ميونخ من عشرين عاما ، وكانت هذه

أول زيارة لالمانيا .. وكانت المدينة ماتزال محطمة .. ولكن ظهرت العمارات الجديدة والشـــوارع المضيئة .. ثم كانت هناك محطة السكك الحـديدية الفخمة .. ووجدت غرفة فى بنسيون اسمه : بنسيون « الشاعر جيته » .. وأعجبنى الاسم . ولم تكن هناك اية صلة بين اسم الشاعر والبنسيون .. تماما كما لاتوجد اية صلة بين لوكاندة البرلمان عندنا والبرلمان ..

والبنسيون متواضع . ولكن من المؤكد انه نظيف ..

وعرفت فى أول ساعة من دخولى البنسيون أنه لا توجد حنفيات للماء .. فالعمارات منهارة .. ولم يتم بعد اصلاح وابور الماء .. اذن لابد ان اغسـل وجهى فى الطشت .. فهناك طشت وابريق . وصاحبة البنسيون فى انتظار اشارة منى .. وجاءت وغسلت وجهى .. وغسلت قدمى .. وشكرتها .. ولم تعتذر عن الطشت والابريق .. فمفروض أن عنـدى نظرا .. فالبلد مهدمة .. وهذا هو احسن ما تستطيع ..

وكان يسكن فى غرفة مجاورة شاب فرنسى . وأثناء الافطار تعارفنا وتحدثنا .. وصارحنى بالسبب الحقيقى الذى جعله يرفض استخدام الطشت والابريق .. فقال : اننا تجاوزنا هذه المرحلة من مئات السنين ..

ولم افهم . وسألته : ماذا تقصد ؟

فقال : ان منظر الطشت يجعلنى اعود الى أيام الامبراطور نابليون الثالث .. وتلك ايام لا احبها !

بعبارة أخرى لا يعجبه الطشت والابريق ..

وأنا لا يعجبنى ولكن ما الذى يمكن ان اصنعه .. ان البنسيون على قدر فلوسى وفلوسه ايضا . ثم ان الناس هنا معذورون فى ذلك الوقت .. ثم انهم لايقلون حضارة عن الفرنسيين .. ولكنه فرنسى يعيش فى المانيا !

ولا هو احب البنسيون ولا صاحبة البنسيون أحبت هذا الشاب .. ولا كل الفرنسيين !

وعندما سقطت المانيا سنة ١٩٤٥ فوجىء الماريشال الالمانى كايتل أثناء توقيع التسليم بلا قيد ولا شرط بأن مندوبا لفرنسا جاء يوقع على التسليم .. فقال :

وفرنسا أيضا ؟

يقصد وفرنسا التى هزمها الالمان سنة ١٩٤٠ فاتيت كدولة كبرى .. ان هذا الموقف المهين لالمانيا ؛ لم ينسه الالمان .. ولم ينسه الفرنسيون ايضا !

ولم تستطع السيدة صاحبة البنسيون ان تخفى شعورها .. فأشارت الى ذلك ..

وكان ذلك منذ وقت طويل .. ولكن الالمان الآن قد نسوا .. او حاولوا نسيان ذلك ..

فالمانيا تغيرت معالمها ..

نهضت المدن والمصانع والشوارع . وامتلأت المحلات التجارية وانتقل العمال الى المانيا من كل الدول الاوروبية .. فالالمان عندهم كثير من الرؤوس وعدد قليل من الايدى .. فعندهم المهندسون والاسطوات والعمال المهرة ولكن ينقصهم العمال فقط .. الايدى فقط ..

ويظهر ان الالمان احسوا بأن جيل مابعد الحرب ليس صلبا ولا متماسكا كما يجب ، لذلك اضافوا الى كل مصنع « مدرسة للتأهيل المهنى » .. واستخدموا فيها أساليب التدريب العنيف .. وبعض المدارس لجأت الى الضرب ..

اذكر انى حضرت احدى ولائم الغداء فى مصانع شركة «ديماج». وقد حضر عدد كبير من الخبراء والاداريين .. وعدد من الشبان المصريين الذين يتدربون على العمل هناك . سألت جارى : وكيف حال الشبان المصريين ؟

فأشار الى مهندس المانى آخر وطلب اليه أن يجيب . وهذه الحركة مألوفة فى المانيا .. فكل واحد يتحدث فى اختصاصه .. مهما كان هذا الاختصاص تافها . ونهض المهندس المشار اليه وقال : بصراحة انا لا أحب هذا النوع من الشبان ..

يقصد الشبان المصريين .. وقال : انهم اكثر اهتماما بالفتيات الالمان .. انا نشكر لهم هذا الاهتمام ولكن بشرط ان يكون فى أوقات فراغهم .. انا لا افهم ما معنى ان يحمل كل واحد منهم صورتها فى جيبه أو يضعها امامه فى الورشة .. !

واحمرت وجوه الالمان . واحسست ان شيئا غريبا قد حدث أو

سوف يحدث .. وان هـذا المهندس الالمانى قد أحرجهم .. وانه ليس من اللائق ان يصارحنى حتى بكل الحقيقة ..

ودار همس وتجاورت رؤوس .. وسمعت المهندس الكبير يقول اننى صريح .. أنا رجل عسكرى .. ولا أحب الميوعة فى الشبان .. من اى بلد !

وسمعت أن هذا الرجل قد وجد شابا يمضغ اللبان فاخرجه من فمه بالقوة وعاقبه ..

ولابد أن مثل هذه التربية الشديدة هى التى أقامت المانيا على قدميها .. عملاقا صناعيا غنيا من حديد وطفلا ذليلا فى وزارة الخارجية الامريكية .. ولا بد ان هذه الذلة هى التى جعلت المانيا تقف الى جوار اسرائيل .. فى تسليحها وتمويلها .. وفقدت بذلك أرضا وملايين العرب من الذين كانوا يعجبون بالصناعة الالمانية قبل الحرب العالمية الثانية .. وكان يكفى أن يجد المواطن العربى عبارة : صنع فى ألمانيا .. ليشترى ودون تفكير ..

وعلى الرغم من أن المصانع الالمانية الكبرى قد فككت بعد الحرب وأرسلت الى دول الاحتلال الاربع .. ومسحت الارض قبل ذلك بالقنابل ، وقتل عشرة ملايين شاب ألمانى ، فان هذه المصانع أعيدت من جديد .. وحولها البيوت .. والمعاهد والمدارس والمتاجر .. وأصبح الالمان مثل أغنياء الحرب .. فهم يقضون الصيف فى إيطاليا وفى أسبانيا وفى اليونان .. ثم هم بعد ذلك يستثمرون أموالهم فى كل مكان فى العـالم .. بل انهم أقرضوا أمريكا وبريطانيا ملايين الجنيهات الذهبية !

وهذا الوضع يضاعف من تعقيد الشخصية الالمانية ومن تناقضها

بل أن هناك أكثر من ألمانيا ..

فهناك ألمانيا الشرق .. وألمانيا الغرب ..

وهناك النمسا التى تتحدث الالمانية ..

وسويسرا التى تتحدث الالمانية ..

وكانت هناك دائما أقليـات ألمانية فى معظم الدول الأوربية .. فى تشيكوسلوفاكيا .. والمجر وبولندا .. وكانت هنـاك مدينة دانزج الحرة ..

وألمانيا نفسهـا دولة مفتوحة الحدود .. انتصرت وانهزمت .. احتلت بلادا واحتلتهـا بلاد .. وحطمت وتحطمت .. فى كل الحروب الاوروبية .. فهى مصدر كل هذه القلاقل ..

ولذلك فالالمان هم الشعب الملعون فى كل أوروبا ..

والنـاس ينظرون الى الالمان فى البـلاد المجاورة على أنهم أناس متوحشون ..

أذكر انى كنت فى أحد المحلات التجـارية فى مدينة انسبروك النمسا . ولاحظت ان البائعات يتغامزن . وعندما نظرت استوضح اقتربت منى بائعة وقالت : انهم ألمان !

قالتها بشيء من الضيق ..

ولكن الالمان هم نصف تاريخ الموسيقى فى العـالم كله .. فهم أحفـاد فاجنر وباخ وبيتهوفن وشـوبرت وشـوبان واشتراوس وموتسارت ..

ولكن الالمان لم يتفوقوا فى الغناء والاوبرات ..

ولم يتفوقوا فى الرسم ولا النحت ..

وهناك مثل يقول أن الانسـان يتعثر فى الفلاسفة والموسيقيين فى الغابات والوديان الالمانية ..

والفلاسفة الالمان من كل الانواع : مثاليون جـدا مثل : هيجل وفخته .. ماديون جدا مثل : ماركس وانجلز .. وأنصار حياة مثل : نيتشة .. وأنصار موت مثل : هيدجر ..

بل انى وجدت فى مدينة تيبنجن بيتا صغيرا متواضعا جدا على نهر يتمسح فى الاحجار .. فى هذا البيت أقام ثلاثة من عباقرة ألمانيا هم : هيجل وفويرباخ والشاعر هيلدرلن .. وكان الثلاثة فقراء .. وكانوا يقتسمون هذه الغرفة الصـغيرة التى تحولت الى متحف ..

وفى هذه الغرفة عاش الشاعر الالمانى هيلدرلن أربعين سنة .. وبعدها انتقل الى مستشفى الامراض العقلية ليعيش أربعين سـنة أخرى ..

والثلاثة مختلفون في تفكيرهم .. هيجل رجل مثالى يؤمن بالروح المطلقة وبالامبراطور والدولة .. وكل ما هو مجرد .. وفويرباخ رجل ملحد مادى عملى .. لا يطيق هذه التجريدات الفارغة .. أما هيلدرلن فهو عميد الشعراء الالمان ونبيهم أيضا .

وهذا الشاعر عاش محروما من كل أوليات الحياة المادية والاجتماعية .. ولم يكن يستطيع أن يلمس أصابع فتاة الا بصعوبة .. فقد كان عليه أن يعطى دروسا لاحدى الفتيات لكى يلمس يديها فقط .. ولما أحس أن الفتاة تنظر اليه بشيء من الاشفاق ـ هي غنية وهو مدرس فقير .. ولم يكن احد يعرف أنه سوف يصبح عبقريا مجنونا بعد ذلك ـ قرر أن يأوى الى فراشه وأن يكتفي بهذا الشعور من جانب الفتاة .. هي حسنة النية وهو لا يطيق أن يكون مثيرا للشفقة !

وعندما ذهبت الى بيت الشاعر هيلدرلن كان الباب مغلقا . خبطت على الباب . فتحت سيدة تسألنى ما الذى أريده . وواضح من شكلى أننى لا أريد شيئا منها . وانما أريد أن أرى فقط أين كان ينام ويحاول الانتحار هذا المسكين العظيم .. وهو مسكين مرة أخرى لان هذه السيدة قد اشترت البيت الذى كان يسكنه الشاعر .. وفتحت السيدة الباب واقفلته ورائى . ولم تقل لى كلمة واحدة . وانما أشارت بيدها الى الغرفة الصغيرة النظيفة : وهى غرفة طالب بها سرير ومكتب . ولا يوجد بها كتاب واحد ..

وهذه الغرفة لا يمكن مقارنتها بالبيت الذى كان يسكنه الشاعر جيته فى مدينة فرانكفورت . فهو بيت أمير الشعراء الالمان ووزير المعارف فى حكومة فيمار .. وهو حكيم الشعراء وفيلسوفهم ..

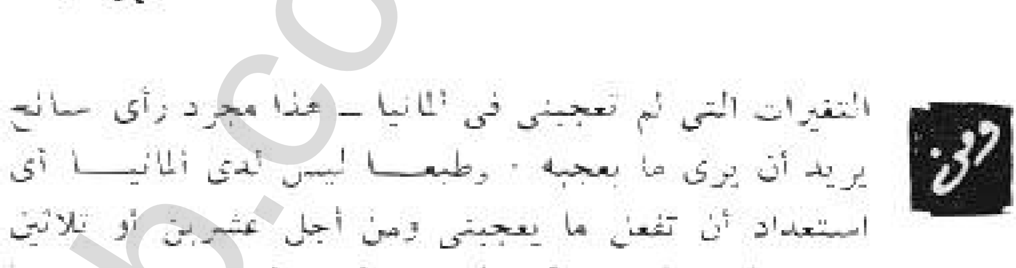
وهذا البيت لا يشبه أيضا بيت الموسيقار بيتهوفن فى مدينة بون .. فالبيت كله من أوله لآخره قد خصص للموسيقار .. وكان الموسيقار يقيم فى بعض الغرف الضيقة فى الطابق الثانى .. فما تزال هناك بعض الحلل والأوانى .. وخصلة من شعره . ومخطوطات بقلمه .. وتوجد هناك « السماعات » النحاسية التى كان يضعها على أذنه عندما أصيب فى أذنه .. وهذه السماعات تسجل تطور

الاصابة عنده .. فما زالت هذه السماعات تكبر وتكبر حتى أصبحت فى حجم بوق الفونوغراف القديم .. أو حجم قمع الجاز الذى يستخدم فى دكاكين البقالة فى الريف ..

وبيت بتهوفن احسن حالا من بيت الموسيقار موتسارت فى مدينة سالزبورج بالنمسا . فهذا البيت قائم فى السوق .. والسلم ضيق .. والغرف مظلمة وضيقة أيضا .. وكل شيء فى البيت الصغير .. أى على مقاس موتسارت .. فقد ظهرت عبقريته وهو طفل .. وكل شيء فى البيت يؤكد هذا المعنى : الطفولة العبقرية ..

⊙✣⊙

صنعت فى أمريكا : الجليطة!



حتى التغيرات التي لم تعجبنى فى ألمانيا ـ هذا مجرد رأى سائح يريد أن يرى ما يعجبه . وطبعـا ليس لدى ألمانيـا أى استعداد أن تفعل ما يعجبنى ومن أجل عشرين أو ثلاثين جنيها أنفقها فى ألمانيا كل سنة ـ لقد تحولت مطاعمها وحاناتهـا ذات الطابع الالمانى القديم الى قاعات أمريكانية ..

وأنا أذكر أننى عندما ذهبت الى « حانة ميونخ » الشـهيرة بأن هتلر كان يعقد اجتماعات النازى فيها . كانت المناضد طويلة كبيرة .. وكنا نحن الزبائن نجلس متجاورين .. متشابكين أيضا رغم أننا لا يعرف بعضنا البعض .. فاذا جاءت الجرسونة الضخمة والقت بالاكواب والاطبـاق واللحوم على الموائد الطويلة امتدت الايدى وتشاركت وتشابكت .. واهتز النـاس يمينا وشمـالا .. ومع الاهتزاز تلتقى الاجسام والخدود والشفاه .. شـفاه غريبة .. ولـكنها تتعـارف بلغـة عالمية .. وتختفى الوجوه فى عنـاق كله ابتسامة وسعادة .. والموسيقى تعزف ألحانا لا يعرفها السائح الغريب .. وكما يفعل الالمان كنا نفعل .. يقفون على المناضد نقف . يغنون .. نغنى . يرقصون .. نرقص . الاذرع ممدودة والشفاه جاهزة . والابتسامات حاضرة والضحك أحلى من الموسيقى .. ولا أحد يعرف أحدا .

وعندما جاء قائد الأوركـسترا واختارنى من بين كل الواقفين على المنضدة صفق لى كل من فى قاعة ميونخ .. وسرت وراء المايسترو الى المنصـة .. والموسيقى كلهـا تتقـدمنى .. ثم أعطانى عصـا القيادة .. وصفق الحاضرون .. وانحنى المايسترو بعد أن ترك لى زمام الموسيقى .. وعلى الرغم من أنها نكتة .. لكن احساسى بأننى

عينت مايسـترو وبلا مؤهلات ولا مقـدمات وفى بلد الموسيقى .. وكأننى بطة ألقيت فى الماء بدأت أبلبط بيدى .. والفرقة الموسيقية تعزف ألحانا جميلة .. ورحت أنعصا فى يدى تعلو وتهبط .. وأنا فى دهشة كيف أن العصا تعرف كل هذه الالحان التى لا أعرفها .. وانتهت الفرقة الموسيقية من العزف .. وتقدم المايسترو وأعطيته العصا .. وشكرته .. وذهبت الى مكانى فوق المنضدة الطويلة .. ولم ألتفت كثيرا الى التصفيق على الجانبين فلابد أنه كان للعصا .. أو للشجـاعة الغريبـة التى اكتشفتهـا فى نفسى .. ولاحظت أن الجهلاء أشجع من العلماء ..

وعندما نزلت من مكانى فوق المنضـدة ووجدت المايسترو وقد خلع قبعته وانحنى ولاحظت أن الجميع يلقون بالفلوس فيهـا .. هه .. فهمت .. ومددت يدى فى جيبى وأخرجت ما به ووضعته فى القبعة .. لا أعرف بالضبط كم دفعت ..

ولكن قبل أن أترك حانة ميونخ هذه تبينت بوضوح جدا أننى يجب أن أذهب الى السجن وأسلم نفسى فقد أعطيت المايسترو كل ما معى من فلوس .. وليس عندى ما أدفعه للتاكسى أو الفندق .. وأهون على نفسى أن أدخل السجن من أن أذهب الى المايسترو ..

وقبل أن أكمل هـذه الجملة سألتنى فتـاة ـ الله يخليها ويطول عمرها ـ ان كنت أريد أن أسترد بعض أموالى من المايسترو .. فهززت كل جسمى واهتز رأسى ضمنا بما معنـاه : نعم .. الله يسترك .. !

وذهبنا معا الى المايسترو . وابتسم وكأنه اعتاد هذا الموقف وأعطانى العشرين جنيهـا .. وتركت له جنيهـا وشكرته .. وشكرنى اكثر !

ولما رأيت هذه الحانة بعد ذلك وجدتهـا تغيرت .. تبدلت .. فسدت .. أصبحت كأية قاعة فى فندق كبير .. المناضد صفت متعزلة .. والناس قد ارتدوا الملابس السوداء المنشاة ـ يخص ! والسقف قد امتلأ بالنجف ـ يخص .. والفرقة الموسيقيـة التى قدتها يوما ما قد وقفت هناك بعيدا وفى غاية الاناقة والشياكة .. والفرق واضح الآن بين الحانة زمان والحـانة الآن .. انه كالفرق بين بيت العيـلة والشقق الصغيرة فى العمـارات الجديدة .. بيت العيـلة هيصـة وكل النـاس يعرفون كل النـاس .. أو من

السهل أن يتعارفوا .. أما هذه الشقق الصغيرة فكل واحد قافل بابه على نفسه .. ولا شأن له بغيره .. فهذه المناضد الصغيرة هي جزر معزولة في بحار من النظافة والبرودة .. واختفى الفالس وظهر الروك أندرول والتويست والجرك - يخص ..

ولم تعجبني أيضا من الالمان هذه الوقاحة الامريكية .. فانت تجد الرجل طويلا عريضا يمضغ اللبانة وينقلها من اليمين الى اليسار . انه حتى لا يفعل ما يفعله أبناء اليمن عندما يمضغون القات ويمتصونه فيتركونه متكوما في جانب الفم ولا يحركونه يمينا وشمالا بشكل يفزعك فتظن أن الحركة القادمة سوف تصيبك في وجهك ..

وعندما ذهبت الى صديق صحفي استقبلني بحرارة .. وأجلسني بالضبط في مواجهة حذائه الذي وضع على المكتب . وكان اذا أراد أن يتأكد من شيء قاله أو قلته انما يفتح ما بين قدميه وينظر الى من هذا الاطار الجلدي .. وكنت أعرف صورتي في عينيه لاني ارى صورته بين الجزمتين .. انها تتسع وتضيق .. وكان في نيتي ان أسأله ان كان في الاستطاعة أن أضع رجلي على المكتب مثله تماما .. ولو وافق لترددت لاني أريد أن أعرف ما الذي ينصحني به في حكاية الامبراطورة ثريا .. فقد كان يضع في فمه سيجارا ضخما .. والآن تستطيع أن تتصور الصعوبة التي أعانيها لكي أفهم منه أي شيء .. صوته هامس .. والسيجار يمتص بعض الحروف .. وما تبقى من حروف يتساقط في المرحلة الأولى بين السيجار وانفتاح الجزمتين .. ثم بين الجزمتين ... ثم في المرحلة الاخيرة عند أذني التي لطشها الهواء البارد فوضعت فيها قطعة من القطن ..

وكان المفروض أن أشهد طلاق الامبراطورة ثريا .. فقد تقرر أن يعلن طلاقها من الامبراطور في وقت واحد في طهران وفي كولونيا حيث السفارة الايرانية .. وكان من رأيه أن أذهب الى السفارة وليكن ما يكون . وذهبت الى السفارة وانطلقت خراطيم المياه ومن ورائها الكلاب وتعلق الصحفيون بالسيارات وبفروع الشجر .. ورأيت ثريا بفستانها الاسود .. ويبدو أن ثريا قد اختارت لون النهار والليل أيضا .. فقد كان النهار أسود والليل كذلك .. فلم أفلح في أن أراها عن قرب أو أتحدث اليها ..

ونصحني الصديق صاحب الجزمة اياها أن أذهب معه الى صديقة

له تعمل في الصالون الذي تتردد عليه ثريا .. وذهبت . وتهامسا وتلامسا .. وتعانقا .. ولم أكن في حاجة الى ان أسأل عما اتفقا عليه .. وفي اليوم التالي كان معي نسخة مكتوبة من الحديث التليفوني بين ثريا والامبراطور .. وعلى جانبي الخط كلمات : ياروحي .. ياحبيب قلبي .. ياحبيبة قلبي - الله امال اتطلقوا ليه ؟!

هذه العبارة الاخيرة لم يقلها أحد . انا الذي قلتها . وأظن أن الحق معي . وتم الطلاق الامبراطوري ..

وبدأت أطارد الامبراطورة .. هي في سيارتها وأنا في القطار .. وكانت مطاردة مضحكة .. تماما كما أطارد ثعبانا في أواسط أفريقيا وأنا ما أزال في القاهرة .. كل ما أعمله هو أن أتجه فقط .. الى مكان الثعبان .. ولكن من المستحيل أن أصل اليه ..

ودعاني الصديق الصحفي أن أمر عليه في البيت .. وذهبت ووجدته يتناول غداءه .. ولم يقل لي تفضل .. لاقول له : شكرا .. سبقتك . مع انني لم أكن قد ذقت أي طعام .. ولكن أمام نذالته لابد أن اتخذ مثل هذا الرفض .. ولم يعجبني هذا الموقف لانه لم يمكنني أن أرفضه .

ومثل هذه التصرفات الصغيرة كثيرة .. وكلها تدل على أن الالمان قد تعبوا من النظام الدقيق في كل شيء .. وبدأوا يخففون القيود .. أي بدأوا يهونون الامر على أنفسهم ..

واذا كان في المانيا شيء من الانحلال . فهذه علامات العصر الحديث . في أوربا كلها .. ولم يخل عصر من العصور ولا دولة من وجود انحلال .. او ضعف جسمي او نفسي .. فالضعف صفة من صفات الكائنات الحية . والدول كائنات حية .. أو تتكون من ملايين الكائنات الحية التي جعلتها الحرب الاخيرة تكفر بالقيم والمبادىء .. لانها ضحايا المبادىء العتيقة .. ولابد أن تستسلم لحالة تستريح فيها من المبادىء .. اي تكون في حالة اجازة طويلة من المبادىء الاخلاقية والاجتماعية .. في حالة تمرد على الاوضاع .. على المجتمع .. على النفس .. ولكنها بعد ذلك تعاود الوقوف في الطابور .. والمشي على الخط .. والاتجاه الى المصانع والمكاتب والآلات والمراسم والمعابد .. ولايمكن ان يكون هذا التطور الهائل في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل في المانيا مجرد صدفة ..

أو مجرد أنهم كنسوا الشوارع من أنقاض الحرب فانكشفت هذه المصانع والمعاهد والحدائق والفنادق والكباريهات .. انها «المعجزة» ـ أى حتى لاأخطىء مرة أخرى ـ انه المجهود العبقرى الذى قام به الانسان فى مواجهة الدمار والخراب والهوان والاحتلال .. والقدرة الابداعية فى العلوم ..

والالمان يعرفون هذا التفوق فى أنفسهم . ويعتزون بذلك . ففى المعرض الدولى الذى أقيم فى بروكسل سنة ١٩٥٧ أقامت المانيا جناحا . وأهم معالم الجناح لوحة وضعت الى جوار المدخل ، دون أن يلفتوا اليها العين .. كأنها شىء عادى .. أو كأنها مجرد لوحة عليها أسماء .. هذه اللوحة عليها أسماء الالمان الذين فازوا بجائزة نوبل .. وعدد الفائزين : ٣ فى السلام و٧ فى الادب و١٠ فى الطب و ١٥ فى الطبيعة و ٢٢ فى الكيمياء !!

(عدد الفائزين بهذه الجائزة فى القارات : آسيا وافريقيا واستراليا : رجلان أديبان .. أحدهما هندى هو طاغور .. والثانى يابانى اسمه كاوابا . وليس هذا كثيرا على الالمان .. ولكنه قليل جدا علينا .. أى على حوالى الفى مليون نسمة !)

ويبدو أن الالمان أيضا يذهبون الى المعامل والمصانع بنفس الحماس الذى يذهبون به الى الثكنات .. ربما كانت الثكنات هى التى دفعت الالمان الى المصانع والى اثارة الحروب تماما كاثارة النظريات الجديدة فى كل العلوم ..

فالالمانى يحب النظام والطابور وعنده صبر عظيم .. وهذه المزايا تجعله عالما ، وتجعله جنديا .. وتجعله بارزا فى العلوم وصارما فى القتال ..

والمانيا الان محتلة فى الشرق وفى الغرب حتى لا ينهض لها جيش وحتى لا تكتوى أوربا مرة أخرى باندفاعاتها المجنونة .. ولذلك تسربت قواها الشابة وقدراتها الهائلة الى الانتاج .. الى البناء ..

ويتولى « ترويض » الشعب الالمانى : الامريكان .. ويتولى ترويض الامريكان على ترويض الالمان أغنياء اليهود ..

فليس أسهل من أن تلاحظ أن اليهود عادوا الى المانيا بكل قوة وكل مرارة. وانهم بدأوا يضغطون على الالمان ليكفروا عن خطيئة طرد هتلر لهم من كل مكان.. وتعذيبهم واحراقهم بالالوف ـ واليهود يقولون بالملايين وهم كذابون طبعا ـ

ففى الكتب المدرسية نجد الحياة فى اسرائيل مقررة على الطلبة .. ونجد الحياة فى المستعمرات اليهودية من ضمن موضوعات الانشاء .. كما أن دور النشر اليهودية أعادت كتابة التاريخ وأظهرت الالمان امام أنفسهم وحوشا وسفاحين .. ان خطيئة هتلر يجب ان تظل خطيئة الى الابد.. وان الالمان يجب أن يعوضوا كل يهودى عن كل ما فقده .. فهم يطلبون تعويضات عن الاب والابن والبيت والسيارة والكلب والمصنع والمعبد والمكتبة .. وكل هذه الاموال ذهبت وتذهب الى اقامة اسرائيل ..

كنت فى المانيا سنة ١٩٥٧ عندما تشاجر أحد المدرسين الالمان مع رجل يهودى فى حانة وقال له : ان غلطة هتلر الوحيدة أنه لم يقتل من اليهود عددا كافيا !

وقامت الصحف وقعدت . وأثيرت هذه القضية فى البرلمان . ولعبت أجهزة الاعلام بأعصاب هذا الرجل وأعصاب الالمان . وادعت الصحف أن هذا المدرس قد تلقى وعدا خاصا من جمال عبد الناصر بأن يعينه مدرسا للغة الالمانية فى مصر ـ يعنى هذا الرجل على اتصال بأعداء اسرائيل ، أى بمصر .. ومعنى ذلك أنه اضطر الى هذا الموقف .. اى ان الالمان لا يفعلون ذلك عادة ، الا بتحريض أجنبى !

وحوكم المدرس وسجن !

وارشيف وزارة الخارجية الالمانية يتفتح وينقفل حسب الطلب. واليهود مسيطرون على وزارة الخارجية وعلى السياسة الخارجية لالمانيا الغربية لانها دولة محتلة من الامريكان .. وبين الحين والحين تظهر علامات النازية على الجدران والمعابد.. والحزب النازى الجديد عندما انتصر فى بعض الولايات الالمانية انزعج الالمان . والصحف الامريكية . ورأوا فى ذلك بعثا وانتعاشا للعداء ضد السامية ـ أى ضد اليهود ..

واليهود ـ كما هى العادة ـ يتولون مهمة افساد الشباب فى العالم .. وفى المانيا يديرون بيوت الدعارة والكباريهات ونشر الاباحية الجنسية والمخدرات . ومعظم الكباريهات فى المانيا يديرها يهود . وفى برلين وحدها يملك شاب يهودى اربعة كباريهات .. منها « عدن » .. و « جنة عدن » .. وهى أماكن لتجارة النساء من كل لون !

اما معسكرات الاعتقال فقد رأيت منها معسكر داخآو . . المعسكر واسع محاط بالاسلاك العالية ·· وحول المعسكر توجد قنوات المياه التى تفصل الاسلاك العالية عن داخل المعسكر ·· وفى داخله غرف الغاز التى كان يوضع فيها اليهود وغيرهم من أعداء النازية من الالمان المسيحيين ·· ويوجد معرض للصور ·· صور المعتقلين وهم متجهون الى المحارق ·· وصور للخطابات والمنشورات وأوامر الاعتقال . . والزوار قد مدوا أيديهم ليفقأوا كل صور لهتلر . .

وتوجد مقابر لرماد الضحايا . .

والارض فى المعسكر مفروشة بالفحم الاسود ·· ليشعر الزائر أن كل شىء نار ورماد ·· وهنا معبد يهودى ·· ويقابله كنيسة . .

وكل يوم يضاف الى هذا المعسكر جناح جديد ·· وصور وملفات ودوسيهات من كل معسكرات الاعتقال الاخرى ·· والمعسكر واسع

شاسع ومفتوح لكل الزوار من كل مكان ·· وزيارته واجبة على كل طلبة المدارس ورياض الاطفال ·· حتى يشعر كل المانى ان اجداده مجرمون . . وحتى يشعر كل سائح أنه يزور بلادا من السفاحين . .

واذا حاولت أن تستوضح أحدا من الالمان قال لك : نحن بلاد ممزقة ومحتلة . . والامر ليس بيدنا ولكنه بيد غيرنا ·· وغيرهم هم الامريكان ·· واليهود !

ولكنها بلاد رائعة يسكنها شعب مروع ! . .





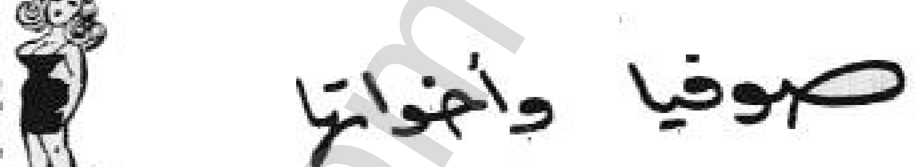
الذين ولدوا ليعيشوا :

أى ليشربوا ويرقصوا

وليغنوا معظم الوقت !

إيطاليا .. للمرة العشرين







عشرين عاما نشرت الصحف اننى مسـافر على « ظهر » الباخرة اسبيريا الى أوربا ..

ولم يضحك أحد لنشر هذا الخبر . فهو خبر عادى .. فمن الممكن ان اسافر أنا أو غيرى الى اوربا وعلى ظهور البواخر او الطائرات . ولكننى ضحكت لاننى سافرت على ظهر الباخرة فعلا وليس مجازا..وتحولت الباخرة الى حصان أو حمارة أوعربةكارو تحمل جوالات من الشعيروانا راكبفوقها . فلم يكن سفرى بالباخرة على اية درجة : لاأولى ولا ثانية ولا ثالثة..وانماعلى ظهرها..فمنذ صعدت الى الباخرة من ميناء الاسكندرية وأنا على ظهر الباخرة ..
ولم يكن الليل قد جاء لافكر فى مسألة النوم وكيف وأين .. ولكن انحصر تفكيرى فى أين اضع حقيبتى دون أن افقدها .. وعنـدما فحصت وجوه الناس لم أجد أحدا أعرفه .. ولا حتى كان المسافرون كلهم من المصريين .. ولا حتى الذين سيشاركوننى ظهر الباخرة من المصريين .. ووجدت الكثير من الحقائب والصناديق والنـاس قد تكدسوا فى كل مكان ..

وسمعت من يقول أن البحارة يؤجرون غرفتهم أثناء الطريق .. فكرة .. وسمعت من يقول ان البحارة يؤجرون المقـاعد .. وانهم ينصبون خيمة فى مهب الريح .. وانه من الممكن أن ننـام تحت هذه الخيمة .. ومعنى ذلك أن النوم ممكن .. ليلة وراء ليلة ..

أما الشنطة ففى استطاعتى ان أربطها فى رجلى .. أو اضعهـا تحت رأسى .. هكذا قيـل لى .. ولكن عنـدما أعدت النظرة الى الشنطة ندمت على اننى اتيت بها .. فلا هى مليئة بالملابس .. ولا أنا سوف أملؤها بالملابس .. ولا ضرورة لها . وكان فى امكانى ان

اشترى كيسا من الورق أضع فيه بعض ملابسى .. واذا اتسخت أو تمزقت ألقيتها فى البحر . فالشنطة خشبية .. وجوانبها محددة . ولم يصنعها أحد لان ينام فوقها صاحبها وكأنه نائم على حد السيف .. وتصورت نفسى وقد ربطت هذه الحقيبة فى رجلى ..ولسبب من الاسباب نهضت من نومى والحقيبة فى رجلى .. وتخيلت الجنود الانجليز أثناء الحرب العالمية الثانية .. عندما كان ماسحو الاحذية يربطون أحذيتهم فى صندوق البوية ، فاذا حاول الجندى أن يطارد ماسحى الاحـذية ، فانه يتعثر ويتشقلب .. وتتاح فرصة لماسح الاحذية أن يهرب ..

وقد حاولت فى احدى المرات أن اهرب من مثل هذا الموقف فلم أفلح .. فقد حدث اننى داعبت أحد البحارة مداعبة عنيفة عنـدما كانت الباخرة تمر فى مضيق مسينا بين ايطاليا وصقلية .. وكان الليل دافئا .. وكنت متعبا فقررت ان انام فى سـاعة مبكرة .. وتمددت على ظهر السفينـة تحت خيمة منصـوبة .. واحتضنت حقيبتى .. وفعلت ما فعله كل عقلاء السفينة : ربطت الحقيبة فى يدى .. وفى ساقى .. وفجأة احسست بمطر ساخن .. يغلى .. غريبة ..فالخيمة يتساقط منها المطر الساخن .. وحاولت ان ابتعد عن مكان المطـر العجيب .. وقد حاصرنى المطر من اليمين والشمال .. وعند ساقى وعند رأسى .. وقفزت والحقيبة قد ارتطمت بى .. وتشنكلت فيها .. ولم تكن هـذه امطارا ساخنة وانما كان أحد البحارة يلقى بالماء الساخن من ثقوب فى الخيمة !

ولم يعجبنى هذا الهزار الملتهب فلم انم تحت الخيمة..وقررت ان أظل طول الليـل اتفرج فى الدرجة الاولى على الراحة التى ينعم بها بعض الناس .. أو بعض الحيوانات .. فلم تبعد عينى كثيرا عن كلب بنى اللون صغير قد نام على كرسى فى الدرجة الاولى .. وهو مثل سيده قد ادار هذا الكرسى وادار ظهره للناس وللبحر.. اما سيده فهو الامير يوسف كمال الذى كان مسافرا معنـا الى اوروبا .. ولكنه سافر لآخر مرة ولم يعد !

وفى العـام التالى سافرت الى اوروبا فى جوف طائرة كانت مخصصة لنقل الماشية من الحبشة الى السودان .. ولكن الطائرة جيدة .. ولم تترك هذه الحيوانات اى اثر فى داخل الطائرة .. ولا حتى اية رائحة .. وانما ما تزال فيها بعض الحبال .. التى

تطورت في الطائرات الاخرى الى الاحزمة المعروفة والتي يربطها المسافر عادة عندما ترتفع وعندما تهبط به الطائرة .. ولان الحيوانات كانت تقف بالعرض في الطائرة ، فلم تكن هناك مقاعد .. لان هذه المقاعد تشغل حيزا ، والمهم هو الحيوانات وليس الناس الذين جاءوا لحماية وخدمة هذه الحيوانات .. ولذلك عندما قررت شركة هذه الطائرات ان تجعلها طائرة ركاب ونقل الادميين جعلت المقاعد بالطول .. فكنا نجلس متجاورين ، كما يجلس الناس في زورق أو سفينة شراعية .. وكانت الحبال مشدودة على بطوننا ، وكنا نمسكها ونتأرجح معها كلما حدث اى اهتزاز ، وكان عددنا كبيرا . وقيل في ذلك الوقت ان عددنا هو بالضبط العدد الذي يناسب الغرض المطلوب .. خصوصا اذا كان هذا الغرض هو الغرق في البحر .. فاذا اضفنا الى عددنا الكبير حقائبنا الثقيلة ، اندهشنا للخفة والرشاقة التي تحركت بها الطائرة من الارض الى الجو ومن الجو الى طبقات عليا أخرى من الجو .. اما كيف وصلت بنا الطائرة بعد ذلك فيقال انه بفضل دعاء الوالدين .. ولان عدد اليتامى بين المسافرين كان اغلبية ساحقة !

وكنت احدث اليتامى . فقد توفى والدى منذ عام ونصف عام !

ولم يكن غريبا ان نضيق بهذه « الدكك » الملتصقة بجدران الطائرة .. ونجلس على أرضية الطائرة .. وبسرعة ظهرت أوراق اللعب والطاولة والشطرنج .. ولست متأكدا من أن أرضية الطائرة قد تغطت بقشر الموز والبرتقال أو البيض .. ولكن من الواضح انها تغطت بورق الصحف .. وعلب السجائر ..

وبسرعة غريبة تحولت الصفوف الطولية الى خطوط دائرية .. ثم الى دائرة واحدة .. واهتزت الطائرة بالتصفيق .. فقد تحزمت المضيفة الامريكية وراحت ترقص على وحدة ونص .. ويشاركها ويعلمها ويسدد خطاها عدد من الشبان الاشقياء .. وكانت المضيفة تضحك وتترنح من الرقص والانبساط .. ولا يمكن ان يتصور احد اننا في طائرة على ارتفاع عشرة آلاف قدم وتتجه الى اليونان بسرعة ٤٠٠ كيلو متر في الساعة ..

وفجأة ظهر كابتن الطائرة وثار وشخط ونطر ووزع اللعنات على

الجميع بالعدل اما المضيفة فانه سحبها من ذراعها وشد الستارة على كابينة القيادة .. وبعد لحظات ظهر مساعده يطلب منا ان نجلس في اماكننا وان نربط الحزام ـ الحبل ـ والا نتحرك حتى تهبط الطائرة في مطار أثينا ..

وبدات الطائرة تعلو وتهبط .. وتميل يمينا وشمالا وتنكفيء على وجهها .. وتقف على ذيلها .. ونحن نهتز ونرتجف ونتساقط تماما كأننا غسيل منشور فوق سطوح في يوم شديد الريح .. وكانت النتيجة الطبيعية هي ان يصاب بعضنا بحالة من الدوخة والقيء والاغماء ..

وطالت الدوخة .. ومضت الطائرة في حالة من « المرمطة » .. الهواء او الضغط هو الذى مرمطها ومسح بها السماء ثم غسلها بعد ذلك بالمطر ..

وعندما هبطت الطائرة في مطار اثينا .. ومشت على الارض .. واقترب منها السلم .. وانفتح الباب لم ينزل منا واحد .. فقد كنا جميعا في حالة من الدوخة المؤلمة ..

ومن وجوه الكابتن ومساعده والمضيفة التى تغيرت ملامحها تماما . تساءلنا عن سبب غضب الكابتن .. وعرفنا ان السبب كان ابعد مما تصورنا .. أو مما تصورت أنا .. لقد كان السبب مخجلا حقيقة .. يبدو ان احدا من المسافرين قد اعطاها شيئا مخدرا في سيجارة او في كوب شاى .. او بلا سيجارة أو شاى .. قد جعلها لا تستجيب لاشارات الكابتن ومساعديه .. وهذا ولاشك نوع من التخريب ! ..

وتعددت وسائل الانتقال بين شواطيء البحر الابيض المتوسط ذهابا وايابا .. وعلى الرغم من انه لاتوجد الا طريقتان هما ، بالبحر وبالهواء .. فان اختلاف السفن والطائرات يكاد يجعل السفر مختلفا تماما .. فالسفر على ظهر السفينة غير السفر في الدرجة الاولى .. والسفر في الدرجة السياحية في الطائرة غير السفر معززا مكرما في الدرجة الاولى ومجانا مثلا ! ..

ولكثرة السفر .. عشرات المرات ، لم اعد أهتم كثيرا بالدرجة ولا بالوسيلة ولا بالطعام ولا بالشراب ولا اين اضع رأسى ولا اين

اضع رجلى .. ولو وضعت راسي ورجلي في مكان واحد ــ كالجنين مثلا ــ فانني لا أتردد في السفر .. فهو المتعة الكبرى التى تساوى كل ما يبذله الراس والقدمان من تعب ! ..

⊙✥⊙

ولا اعرف اين ومتى وكيف التقيت بأول وجه ايطالى .. في مصر أو خارجها .. فالايطاليون موجودون في كل مكان .. أو أستطيع ان اقول بشكل آخر : انه من الصعب الا تسمع اذنى كلمة واحدة ايطالية كل يوم ..

ففي المنصورة منذ ان كنت طفلا وانا اسمع على الاقل كلمة واحدة ايطالية يوميا .. فقد كان في بيتنا اسرة ايطالية..وفي نهاية الشارع بقال ايطالى .. وفي الطريق الى المدرسة كنت اخوض طريقي بين عدد من التلامذة يتكلمون الايطالية ..

وفي سن مبكرة جدا اعتدت على اللغة الايطالية .. وعلى لهجتها وعلى طريقة النطق بها .. ولا أعرف لماذا اكتسبت لهجة ايطالية يصفها الايطاليون بانها لهجة جنوبية .. ولم يحدث أن تحدثت الى أحد من الايطاليين حتى ابدى دهشته من لهجتى الجنوبية .. لهجة نابلى وصقلية .. مع انني لم اكن رايت لا نابلى ولا صقلية .. وهي لهجة اقرب ما تكون الى اللهجة الصعيدية عندنا .. وعلى الرغم من انني وجدت في هذا الراى حفلة تكريم لمجهودى الخاص في تكوين لهجة صحيحة ، فانني احسست بشيء من الضيق .. وهذا الطريق قداضطرنى في كثير من الاحيان الى أن أجعل صوتي رفيعا واتلاعب به موسيقيا .. ولكن كان راى الايطاليين انني لم اغير لهجتي وانما غيرت فقط من حجم الصوت .. برضه صعيدى ايطالى ! ..

وانا لا احب الذى به يتكلم فيحرك يديه وملامح وجهه ، وان كنت قد وقعت ضحية لهذا التعبير بكل ملامح ومعالم الوجه والجسم ، ولكن الايطاليين ، وكل سكان البحر الابيض لا يتكلمون وانما يرقصون ..

والايطاليون يتكلمون بصوت مرتفع .. ويخيل اليك اذا لم تكن تعرف اللغة الايطالية انهم يتشاجرون .. واذكر انى كنت مسافرا

من روما الى فينيا في القطار .. ولم اجد مكانا . فظللت واقفا في الممر .. واخيرا عندما وصل بنا القطار الى ممر برنر وجدت مكانا .. ودخلت وهززت راسي تحية للجالسين .. وتلمست طريقي بين السيقان الممدودة .. وفي الركن جلست .. وارتفع صوت غليظ واعتدلت لاعرف ما هي الحكاية..ومضى الرجل يتكلم عالى الصوت ولكن احدا من النائمين لم يتحرك .. لا صحا ولا استنكر .. وجاء صوت ناعم يرد .. كانت زوجته .. ومضى الرجل بصوت مرتفع .. اما هو فكان كالذى يجلس على كرسي في صالون حلاق .. يلف ويدور ويتقدم ويتراجع واحيانا ينهض كأن الشعر قد تسلل من قفاه الى ظهره .. والذى يسمعه يوقن تماما انها خناقة .. مع انه كان يروى قصة كيف سافر من القرية الى مدينة روما وهو صغير .. وعلى قدر فهمي فانني اعتقد ان هذا الرجل فشار ــ وكل الايطاليين كذلك ــ لانه ينسب لنفسه مغامرات غير معقولة ..

وفجأة تعالت اصوات النائمين بالضحك .. وكانت أصواتهم اعلى من صوته .. انهم جماعة من الصعايدة الايطاليين .. ولكن حتى الذين ليسوا من صعيد ايطاليا فانهم لا يختلفون عن هؤلاء الا في درجة ارتفاع الصوت .. ولكن الطريقة واحدة ..

فالايطاليون فيهم حيوية وشباب وطفولة أيضا .. وهم يؤمنون بتشغيل كل الحواس .. انهم أبناء هذه الدنيا .. هذه الارض.. وهم يضحكون .. كأنهم مكلفون بالضحك بالنيابة عن كل شعوب الشمال في اوربا . فهم ينظرون الى كل شيء ويجدون شيئا يجعلهم يضحكون .. اى شيء .. ومن النادر الا يجد الايطالى نكتة او قفشة في اى شيء ينظر اليه او يفعله أو يتذكره او يعلق عليه .. على عكس سكان اوربا الشمالية .. ويبدو ان الايطاليين قد اقتسموا الدنيا مع الاوربيين الآخرين : هم يضحكون وغيرهم يفكرون ويحزنون !..

ولا يوجد ايطالى واحد لا يغني .. ولا يرتفع صوته في اى وقت وفي اى مكان بعبارة من عبارات الاوبرات المعروفة .. فعمال البناء يرددون عبارات وجملا موسيقية من اوبرات : توسكا ..والشهامة الريفية .. ولا ترفياتا .. وعايده .. وفرانسسكادا ريميني .. وفي الليل وانت نائم تجد صوتا يجلجل في الشارع : انه احد المارة يغني .. انه ليس مخمورا .. ولكن المخمور هو وحده الذى

يرفض ان يغني لانه يخشى ان يطلب اليه احد ان يسكت لا لانه مخمور فلا عقوبة على الخمر ، ولكن بتهمة ان صوته قبيح .. وهذه تهمة كبيرة .. كما نتهم اى مصرى بانه لا يفهم النكتة .. أو دمه تقيل .. او لا يحب الفول بالزيت او الملوخية بالارانب !

والايطاليون خبراء فى الاكل وفى الحب .. فهم يأكلون كميات كبيرة من الطعام .. لا بد من المكرونة والجبنة والنبيذ والفاكهة .. والفقير جدا هو الذى لا يجد النبيذ .. والنبيذ كثير ورخيص .. والرجل الايطالى لا يشرب النبيذ لانه «شريب» ولكن لانه يريد ان يفرفش .. ويضحك اكثر .. وعلى الرغم من الكميات الكبيرة من المكرونة التى يلتهمها الايطالى فان الاجســـام الايطالية ممتلئة

قليلا .. وقد وجد الايطاليون فى ذلك مبررا لسلوك آخـــــر .. فالايطالى يطارد الفتيات فى الشوارع .. يطـــاردهن بلا تعب من شارع الى اتوبيس الى شارع الى أتوبيس .. فاذا لم يفز بشىء فى النهاية عاد يغنى .. ثم يستمر فى المطاردة .. واذا ســـألته عن السبب قال لك : لا بد أن امشى .. انها المكرونة .. فانا لا اريد أن اكون بدينا .. ثم كيف لا اغنى ! ..

اى انه يطارد الفتيات لانه يريد أن يمشى .. وهو يريد ان يمشى لانه يريد أن يفشل فى المطاردة ليغنى على خيبته بعد ذلك : .

والحقيقة ان معاكسة الفتيات عادة لا يضـــــيق بها الرجال .. ولا تضيق بها الفتيات .. فقد اعتادت المرأة على المعاكســة واعتاد الرجل .. وفى ايطاليا يطلقون على هذا النوع من الرجال انه بغبغان ـ بباجالو ـ لانه يغنى وراء الفتيات .. وان كان صوت البغبغان قبيحا .. فالبغبغان شتيمة فظيعة لاى رجل ايطالى ! .

ولكن الإيطالى يتمتع بحياته .. وبعواطفه أيضا ..

والمرأة الايطالية تشجع على ذلك .. فهى واضحة المعالم .. وبارزة الانوثة .. الصدر بارز .. والارداف ممتلئة .. والخصر هزيل .. والعينان واسعتان .. والشفتان ممتلئتان .. الى آخر هذه الملامح الرومانية التى اضافت لها الحرية العاطفية أن تستمع الى معان اخرى كثيرة مشجعة للايطاليين ولغيرهم على أن يمدوا ايديهم وشفاههم ويتذوقوا معانى الحياة .. كما يفعلون على شــــواطىء الانهار والبحيرات وبالقرب من البراكين وعلى اطراف الغابات ..

فهى تحمل على صدرها براكين فيزوف واسترومبللى .. وفى عينيها صفاء البحيرات وعلى راسها اوراق وظلام الغابات .. وسيقانها وذراعاها وبشرتها .. مستعارة من نعومة الفواكه والحرير والبلاستيك والطرق المرصوفة . والاغنية الايطالية تقول : المسينى بيدك .. قطعينى بفمك .. واخنقينى بشعرك .. وادفنينى فى صدرك .. واتركينى اتمدد الى الابد ..

وهذه الاغنية ينفذها الايطاليون منذ وقت طويل ..

والافلام الايطالية تلتفت الى هذه المعانى التى تهم المتفرج ..

فمنذ ظهر فيلم « مرارة الارز » بطولة سيلفانا مانجانو .. واصبح العرى على الشاشة شعارا للواقعية الجديدة .. ففى هذا الفيلم سقطت سيلفانا فى الوحل .. وارتفعت من الوحل لتسقط فى كل مكان آخـــر .. والعيون تأكلها .. والفتيان يقلدونها والفتيات ايضا .. ونسى المتفرج ان الفيلم يصور مأساة عمال التراحيل فى ايطاليا .. ولكن المهم هو ان يرى اللحم الانســــانى عاريا ليلتهمه ساخنا .. ولينسى المشكلة الاساسية بعد ذلك .. لان المشكلة الإساسية هى أن يحب ويأكل من يحب ..

وقد انطلقت كل الافلام الامريكية والفرنسية تعرى الفتيـــات وتغطيهن بالوحل .. ليجيء رجل يتظاهر بالشهامة ليغسل الوحل بالحب .. لان هذه هى القضية ! ..

وفى فيلم اسمه « الخـــائنة » بطولة جينا لولو بريجيدا اعلنت البطلة فى اول الفيلم : ان الجسم كنز الرجل الايطالى ومملكة المراة الايطالية .. والحياة عبارة عن معادلة بين الكنز والمملكة !.

وهذه عبارة صحيحة ..

والافلام الايطالية ـ او على الاصح الجمال الايطالى ـ هو الذى أطلق صدر جينا لولو بريجيدا وقوام صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى .. وساقى سيلفانا مانجانو .. وشفتى الباتوره روسى دراجو .. والصوت المبحوح النائم لسيلفانا بمبانينى .. واصـــابع قدمى سكافينو .. وغيرهن من صواريخ الشـــاشة الايطالية .. وليس النساء فقط .. وانما الرجال أيضـــا .. فالرجل الايطالى فيه رجولة ويكفى ان نذكر فيتوريو جاسمان .. وماســـتوريانى .. وغيرهما كثيرون ..

انه الجسم .. وسحر الجسم .. ذلك الكنز والمملكة الذى حول الشاشة من تصوير الاعماق .. الى تصوير الغــلاف الخارجى الجميل والاتجاه الى الاعمــاق .. فكل الاعماق تبدأ من قشرة التفاحة وبشرة المراة ..

واذا كانت المراة الايطالية فى الشمال شقراء ناعمة ، فان المراة فى الجنوب سمراء واكثر نعـومة .. واذا كانت المراة الايطالية فى الشمال اوروبية ايطالية . فانهــا فى الجنــوب ايطالية فقط غنائية انثى .. محافظة .. والرجل هو السيد .. هو السـيد للرجل وللمراة ايضا .. ومن المناظر الغريبة ان تجد الصغير يقبل يدى الكبير .. أو تجد الجندى يقبل يدى الضابط .. أو يدى العمدة .. كما يحدث فى الريف عندنا وفى أسبانيا ..

ولكن الشعر الغنائى والرقة كلها فى الجنوب .. فأجمل الاصوات واحسن مؤلفى الاغانى يعيشون فى الجنوب .. ففى نابلى توجد ارق الاغانى الايطالية واكثرها اسى وعذوبة .. وفى صقلية توجد اروع اغانى الفلكلور .. واعمق قصص الحب كلها فى الجنــوب .. بل واعظم ادباء ايطاليا من الجنوب .. من مثل : الاديب بيرانديللو من صقلية .. والفيلسوف كروتشه من نابلى — صوفيا لورين ايضا وكذلك فيرجا وبورجيزه وفورتنــاتو وسالفا ميني وبرنكاتي .. وغيرهم كثيرون ..

والفارق كبير بين اهل الشمال واهل الجنوب ..

ومن العجيب ان احدى الصحف قد نشرت مرة هـذا الاعلان : لاشىء يضيع عنـدنا .. فاذا انكسرت العلب بعثنا بها الى الجنوب .. واذا تحطمت الزجاجات صدرناها الى الجنوب .. واذا اختلف موظف مع رئيسه نقله الى فرع الشركة فى الجنـوب .. اننا نجد لكل سلعة من يشتريها فى الشمال . فاذا رفضها الشمال اتجهنا بها الى الجنوب ! ..

فايطاليا دولتان وشعبان : اناس فى الشــمال .. وفقراء فى الجنوب !..

ولكنهم فقراء ظرفاء .. واجمـل ما فى هؤلاء الفقراء نساؤهم وحناجرهم ! .

اذكر اننى اقمت فى مدينة بالرمو بجزيرة صقلية بعض الوقت .. وفى احد الايام ذهبت الى مطعم صغير يشرف على ميناء بالرمو . وخطر

لى أن ارتدى الملابس الوطنية .. البنطلون الضيق .. المفتوح تحت الركبة .. والقميص المفتوح عند الصدر .. والبرنيطة الكبيرة المصنوعة من سعف النخيل .. وعلقت سلسلة فى عنقى .. والسلسلة مكتوب عليها اسم فتاة .. لا أعرف من هى الفتاة .. ولكن السلاسل تباع فى الشارع جاهزة : باسم الفتاة وعنوان وهمى واسم اغنية معروفة فى ذلك الوقت .. ومررت امام الفنـدق واشتريت سلة من التفاح الجميل .. ورأيت سـيدة عجوزا تبيع النبيذ .. ومددت يدى واشتريت وصادفنى طفل غلبان يبيع الكعك والجبنة .. فاشتريت .. وقابلتنى سيدة فيها شبه كبير جدا منى اذا بلغت الثمانين فيما عدا ان لها شاربا خفيفا وكانت تبيع الورود .. ومددت واخذت .. وشكرتها .. وشكرتنى ..

والصورة التى أمامك الآن : هى صـورة لسائح يشبه السياح الخواجات الذين يجيئون الى مصر ويرتدون الطربوش ويجعلون الزر الى الامام .. ويمسكون الطبلة ويشترون الشبــاشب الزنوبة ويعلقونها فى رقابهم .. ثم يلفون منديلا حول العنق وشالا حول الخصر .. ويستعدون لاى نقر على اية طبلة ليرقصوا ويهزوا بطونهم .. ثم يضعوا فى جيوبهم سندوتشات الفول .. اى انهم يحاولون أن يكونوا قريبى الشبه جـدا لصفات المصريين التى جاءت فى الكتب السياحية فى اوروبا وامريكا .. ودخلت أحد المطاعم ونهض صاحب المطعم وقال : بون جورنو .. ورددت عليه .. وقال لى اتفضل .. وساعدنى على نقل ما معى ووضعه على كرسى آخر .. وساعدنى على وضع الورد فى اناء جميـل .. ووضع الورد امامى .. وجاءت زوجته بمفرش رائع ووضعتـه على المنضدة .. وجاءت ابنته .. واخذت النبيـذ والكعـك .. وجاءت ابنتــه الصغيرة وراحت تمشط شعرى .. وتختــار لى وردة وتضعها حول اذنى .. وجاء شـاب ظريف وسيم .. ومد يده الى السلسلة التى فى عنقى .. ورأى اسم الاغنية .. وقال سعيدا : ان ذوقنا واحد ..

ومن المؤكد اننى كنت سعيدا .. ولكن لا اعرف مناسبة لذلك كله .. لقد كنت سعيدا والسلام .. والسبب والمناسبة ولماذا كل هذا — لايهم ابدا . واعتقد ان هذا الموقف السعيد قد أثر فى نفسى زمنا طويلا .. فقد قررت بلا وعى منى ان أكون سعيــدا والسلام .. واجمل مافى هذا القرار انه قرار جسمى .. اى ان جسمى هو الذى اتخذه مستقلا عن عقلى .. وهــذه نعمة من نعم الله .. أن يكون للجسم قرار واحكام لايستأنفها العقل !

والتف هؤلاء الناس حولى . . وجاءوا بمقاعدهم . . وكل واحد جاء بطعامه وشرابه . . وجعلنا نأكل ونضحك . . ويتبادل الرجل وأولاده الرقص . . والغناء . . ونشترك معا فى هذه الهيصة . . ومن حين الى آخر انظر الى الوجوه أبحث عن مجنون . . لابد أن يكون هناك واحد مجنون ـ يغنى ويرقص ويضحك ويأكل ويشرب دون سبب واضح . . لم أجد أحدا مجنونا . فالضحك صادق . . والسعاد مؤكدة . .

ولابد ان يسألنى أحد : ماذا حدث بعد ذلك ؟

لم يحدث اى شىء بعد ذلك . .

فقد كنت اول زائر لهذا المطعم فى احد الاعياد المقدسة . . وقد تفاءل الناس بزيارتى . . وغمرونى بالرقة والكرم والقبلات على الوجه وعلى الاكتاف . . وعلى اليدين . . والشىء الذى ضايقنى عندما عدت الى الفندق هو كيف اننى لم أرد على هذه القبلات بأحسن منها . . وكيف اننى كنت متفرجا ولم اكن ممثلا مندمجا فى الدور . . او حتى متفرجا متحمسا . . والمصيبة اننى لم اكن اعرف المناسبة . . وانما هى مجرد الصدفة . . فقد تصادف اننى قررت ان اكون ايطاليا فى نفس اليوم الذى تحتفل فيه الجزيرة بعيد أحد القديسين . . وما اكثر القديسين فى ايطاليا !

ومثل هذا المشهد فى الجنوب لايمكن ان تجده فى الشمال بهذه البساطة والنقاء والحرارة .

ولا يمكن ان يحس الانسان الا نادرا فى حياته انه يختفى تحت جلده أجمل مافى الدنيا : رائحة الزهور وحرارة الشمس ونشوة السعادة وبراءة الطفل وأبدية اللحظة التى يعيشها !

والرجل الايطالى الذى يرقص ويغنى هو نفسه الذى يقتل ويسرق وينهب . . وهو أيضا الذى يذهب الى الكنيسة ويصلى . . بنفس الحماس والحرارة والصدق !

وايطاليا هى بلد : ماركونى مخترع الراديو . . وبلد آل كابونى المجرم الانيق . . وبلد كازانوفا العاشق الولهان . . وبلد الفاتيكان . . ومهرجانات السينما ومهرجانات الاغانى . . وسباق السيارات . . ومعرض « البينالى » فى البندقية . .

وايطاليا تشعل من الشموع فى كنائسها اضعاف ماتفعله اية دولة

أوربية . . لكثرة الكنائس والقديسين . . ولكثرة المترددين على بيوت العبادة . .

ومن الحوادث المشهورة انه فى سنة ١٩٥٣ هزم حزب ديجاسبرى فى الانتخابات . وبعد الهزيمة سالت الدموع من أحد التماثيل فى مدينة سيراكوزه فى صقلية . . واتجهت الطائرات والسيارات والقطارات والسفن الى حيث يبكى القديس ـ ملايين الناس وملايين الصور . . واقيمت المطاعم والفنادق . . وطبعت ملايين الصور والتماثيل وطوابع البريد من اجل دموع القديس . . وبعد ذلك بشهور سالت دموع اخرى لقديسين آخرين فى مدن مختلفة . . وتحولت السيارات والطائرات والبركات الى حيث الدموع الطاهرة اللامعة فى ضوء مالا نهاية له من الشموع !

وعلى الرغم من هذا التدين الشديد فان الايطاليين ايضا ليسوا متمسكين بالدين . . ففى ايطاليا اتجاهات دينية قوية : فيها الفاتيكان . . وفيها اتجاهات متحررة عامة : فيها أكبر حزب شيوعى فى اوروبا . . وفيها جمعيات ادبية متحررة . . وفيها هيئات فوضوية .

وفى ايطاليا أدباء يهاجمون الكاثوليكية بعنف وسخرية . .

وقد ضحكت ايطاليا كلها مع فيلم « دون كاميللو » الذى قام ببطولته الممثل الفرنسى فرنانديل . . والفيلم من تأليف الكاتب الايطالى جوارسكى الذى دخل السجن بسبب بعض العبارات النابية وبسبب هجومه على الكنيسة . . ولكن ايطاليا لم تمنع هذا الفيلم الذى يسخر من نصف المتفرجين عليه . . أى من القساوسة !

ولم يكتف المؤلف جوارسكى بهذا الفيلم فقد ظهر له فيلم آخر اسمه « عودة دون كاميللو » . .

وظهر فيلم ثالث اسمه « بيبنو وفيولينا » . . اما بيبنو فهو اسم طفل من مخلفات الحرب العالمية الثانية . . وفيولينا هو اسم « الحمارة » التى اشترتها القرية لهذا الطفل . . وقصة الفيلم الذى شاهدناه هنا فى القاهرة ان الحمارة مريضة . . والطفل يريد ان يدخل بها الكنيسة لتزور معه قبر القديس فرانشسكو . . وهو الرجل الذى أحب الطيور والحيوانات وكان يمشى حافى القدمين . . وهو الذى تنسب اليه جماعة الفرانشسكان الذين يحلقون شعورهم ويمشون حفاة . . أو يرتدون الصنادل التى تعرى القدمين كما كان يفعل القديس فرانشسكو . ورغب الطفل أن يدخل الكنيسة بحمارته .

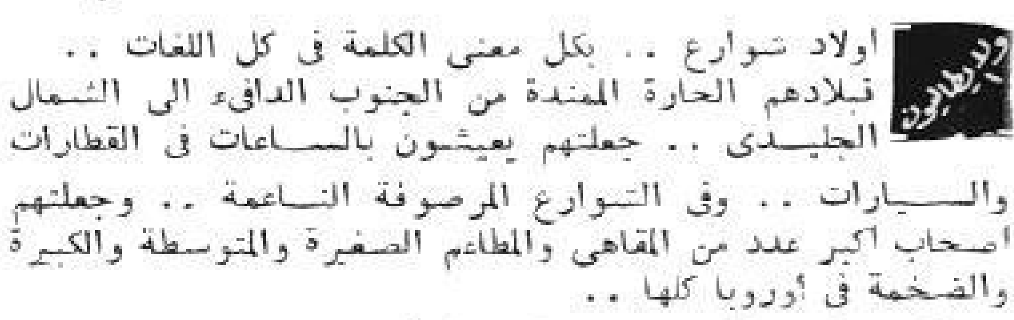
وأمام رغبـــة الطفل رقض قساوسة القرية مع أن كنيسة القديس فرانشسكو قد رسمت عليهـــا صور للطيـــور والحيوانات . . ويلجأ الطفل الى البـابا . . ويناقش البابا والكرادلة فى هذا المطلب الغريب للطفل . . ويرون انه لامانع من دخوله هو وحمـــارته الى الكنيســـة . ويدخل الطفل مع حمارته . . وتتعثر قدم الحمارة فى كنز فى داخل الكنيســـة . . وهــذه النهاية للفيلم هى التى تجعل المعنى الاخلاقى واضـــحا : وهو ان الكنوز تتفتح للمتواضعين والمؤمنين البسطاء . . ايمان الاطفال ! . .

ثم هجوم سينمائى على هـذا الفيلم . . ومناقشة فيها كثير من الاستخفاف للقصص الدينية . .

وكل هـذه المتناقضـات الحيوية الحارة موجودة فى ايطاليا وفى الشعب الايطالى . .

⊙❖⊙





اولاد شوارع . . بكل معنى الكلمة فى كل اللغات . . فبلادهم الحارة الممتدة من الجنوب الدافىء الى الشمال الجليـدى . . جعلتهم يعيشون بالسـاعات فى القطارات والسـيارات . . وفى الشوارع المرصوفة الناعمة . . وجعلتهم اصحاب أكبر عدد من المقاهى والمطاعم الصغيرة والمتوسطة والكبيرة والضخمة فى أوروبا كلها . .

وكلمـــة « شارع » تتردد كثيرا فى أسماء القصص والافلام لان الشارع ملتقى حيوى لكل الناس . .

والشارع تتغير معالمه فى كل ساعات الليل والنهار . .

ففى الصباح المبكر تجد الشـارع عبارة عن ميدان لاطلاق النار والدخان . . فالسيـــارات كثيرة وسريعـة ومدوية . . وكذلك الفسا الصاخبة . .

وبعد ساعة تمتلىء الارصـــفة بالمشاة المسرعين . . كل واحدة وواحد الى عمله ويقفون بالعشرات امام محطات الاتوبيس . .

وبعد ساعة اخرى يجىء دور الارصفة . . وعلى الارصفة تجتمع المقاعد الملونة والمفارش النظيفة . . واكواب الماء . . والشاى والقهوة . . ويجلس الناس على المقاهى ويحلقون بعضهم لبعض . .

وعند الظهر تتحول الشـــوارع الى سوق ومهرجان وترسانة للسيارات والاتوبيسات والناس والسياح والضوضاء . . والصراخ والاصطدام والمعاكسات . .

اما عند الغروب فالشارع والارصفة مهرجان . . وعرض للازياء والجمال الايطالى . . لا اول له ولا آخر . . ودوخة مؤكدة اذا قررت - بسبب قلة العقل والجشع - ان تتابع كل الفساتين وكل الاحذية وكل الاذرع والسيقان والصدور والشفاه وتحاول أن تترك اثرا أو تتلقى اثرا . . او تطلق اشارة او تتوقع اشارة . . واحسن نصيحة

لك هى ان تفعل بالضبط مايفعله رواد الفضاء أن تستلقى على ظهرك وتترك نفسك فى حالة انعدام الوزن .. وتعود الى الفندق بعد ذلك تبتلع ما تستطيع من الحبوب المنومة .. واذا كنت سعيدا رأيت شيئا ما فى احلامك يعوضك عن الحرمان بكل الوانه الطبيعية ! .

وفى ساعةمتأخرة من الليل .. يصبح الشارع اسود لامعا مغسولا باردا .. ويقذف اليك الهواء بالموسيقى والروائح الغريبة من كل جانب .. وينتهى بك الشارع عادة الى نافورة .. لايوجد شارع لايصل الى نافورة .. وهذه النافورة هى دش رقيق جميل لتخفيف حرارة الجو .. او حرارة الجوف .. وانت حر بعد ذلك أن تدير ظهرك للنافورة وتتفرج على جمال الليل .. الذى يلقى ضياءه الحالم الرقيقة على الوجوه الجميلة .. أو على حركة الجمال الرقيق فى الشارع من رصيف الى رصيف .. او من الرصيف فجاة الى سيارة ذات فرامل صارخة ــ وما اكثر السيارات التى تتوقف فجاة وتلتقط بنات الشوارع .. وبعد لحظات تنفتح السيارة وتلقى بنات الشوارع الى الشوارع ..

وانت مازلت حرا فى ان تجعل ماء النافورة ينزل على وجهك وتتركه يتسلل الى ملابسك .. فللماء فى هذه الساعات من الليل فعل السحر عندما يصيبك اليأس ..

وهذا الليل فى ايطاليا هو ابو المساكين والمحرومين والمفكرين .. ولانه اب للجميع فهو قادر على ان يجمع بينهم على رصيف واحد وعند تقاطع شارعين .. وفى الميادين وعلى المقاهى .. وفى الاركان المظلمة وفى مداخل البيوت .. وفى المصاعد التى تقف فى الظلام عند الطابق الاخير وتتفتح الابواب دقائق .. ثم يعود الهاربون فيها الى الشارع مرة أخرى ..

وبعد منتصف الليل .. تتعالى أصوات العائدين الى بيوتهم ــ ويدور بينهم وبين رجال البوليس احاديث وابتسامات وغمزات ولمزات .. يقول عسكرى البوليس :

ــ الى اين ؟

ــ وانت الى اين ؟

ــ عندى موعد غرامى .

ــ يابختك ..

ــ سمعت هذه العبارة من امى ومن أحد اللصوص ..

ــ لقد كانت امك على حق ..

ــ وانت ما الذى تعرفه عن امى ؟

ــ ان واحدة تاتى الى الدنيا برجل ظريف مثلك تستحق التكريم ..

ــ اشكرك ..

ــ ولكن الام التى تاتى بواحد مثلك يجب ان تندم مدى حياتها الثانية بعد الموت !

ــ وكيف ذلك ؟! .

ــ انت تجمع بين ماتقوله امك وبين مايقوله لص .. دون ان تفرق بين المجرم وبين التى اجرمت انت فى حقها ..

ــ ومن الذى قال اننى اتحدث عن اللصوص ..

ــ انت الآن ..

ــ آه .. انت فهمت ان هذه الكلمة معناها لص .. ان معناها السيدة المحترمة .. فهذه الكلمة عامية عندنا فى الجنوب .. فكيف لاتعرف ذلك وانت من الجنوب ايضا !

وكنت قد نسيت اننى من الجنوب .. ففى الليل يصبح اهل الجنوب مثل اهل الشمال .. مجرد اشباح جائعة تروح وتجىء ..

اذكر اننى عندما قرات قصة « فتاة روما » لصديقى الاديب الايطالى البرتو مورافيا .. هزتنى هذه القصة .. وطلبت منه ان يرينى هذه الفتاة التى استوحى منها القصة .. او اية فتاة شبيهة بها ..

وضحك الاديب الايطالى ..

وضحكت انا ايضا لسذاجتى المفاجئة .. فانا ايضا اكتب مثله .. واتخيل .. وليس من الضرورى ان تكون للصور التى أرسمها اى وجود فى الواقع .. بل ان الادب الواقعى ليس هو الادب الذى ينقل الواقع نقل مسطرة .. ولكنه الادب الذى ينقل الواقع كما نراه نحن وكما نتخيله نحن .. ونحذف منه ونضيف اليه مايعجبنا ..

ولكن على الرغم من ذلك كنت اقف فى ميدان ايسيدرا القريب من محطة روما .. واقول كانت المسكينة ادريانا بطلة قصة «فتاة روما» تقف هنا .. وعند كشك بيع الصحف .. وكانت تتوارى من البوليس .. مسكينة كانت جميلة .. رقيقة فقيرة .. ولم يكن عندها ماتبيعه

غير هذا الجسم .. وعندما قررت أن تعطى جسمها للشخص الذى تحبه كانت النهاية .. نهايتها ونهايته ..

وقبل الفجر بساعة يجمع الليل بقاياه من كل شيء .. الناس يختفون فى بيوتهم .. وتختفى النساء تماما .. ويتأهب رجال البوليس الى العودة الى بيوتهم .. وتظهر عربات اللبن وعربات الخبز واللحوم والفاكهة .. ويظهر الكناسون بالمئات .. ويدفعون أمامهم أكداسا من مخلفات معركة الأمس..وهي معركة كل يوم.. العلب والزجاجات الفارغة وأوراق الصحف والفواكه ويغسلون الارض .. أو يغسلون الارض التى تلمع كأنها سقف أو كأنها جدران .. او كأنها أطباق تأكل عليها مدينة روما .. تأكل اهلها من الرجال والنساء .. كل يوم تأكلهم وتمضغهم وتسحقهم وتهضمهم ثم تلدهم من جديد .. وبذوب الناس .. وتبقى الشوارع حية حارة .. شديده النهم .. تأكل ولا تشبع . تشرب ولا ترتوى .. تفضح وتستر .. ولكنها تستر أكثر واكثر ..

ولكن هناك دائما مجتمع متجدد كل شيء فيه موجود .. جاهز .. الحب جاهز .. العشق جاهز .. والشجار جاهز .. الموسيقى هى الهواء والغناء هو الماء .. والرقص هو المد والجزر .. والمرأة هى القمر الذى يرفع الماء ويتركه يهبط من التعب .. كل ليلة .. على كل شارع .. على كل رصيف .. فى كل ساعة..

فى احد الايام كنت فى مدينة بروجه .. واخترت مقهى فى ميدان الكاتدرائية .. المقهى واسع عريض .. أنيق جميل .. فخم .. وأخذت مكانا قريبا من نهاية المقهى .. قريبا من السور الحديدى الذى يضعونه حتى لا يهرب الزبائن .. او حتى لا يهرب الى الزبائن اناس من الشارع .. واخترت هذا المكان لكى تكون الموسيقى بعيدة بعض الشيء .. فأسمعها اذا اردت وأتجاهلها اذا أردت .. على عكس الذين يجلسون الى الداخل فيشعرون أن الموسيقى مقررة عليهم .. وانهم كأفراد الاوركسترا .. ولكنى قررت أن أكون متفرجا ومستمعا .. واخترت المكان بالقرب من الباب أيضا ..

ولما سألنى الجرسون : سيدى ؟

قلت : آيس كريم بالصودا وبعض البسكوت .

قال : حالا ..

ولما لاحظت انه يسألنى ويرد على بصورة آلية .. تضايقت .. فهو لا يعرف أن المال الذى معى قليل .. واننى قررت أن اجلس هنا وان أستمتع لأقصى درجة .. ومهما كان المبلغ الذى ادفعه تافها ، والبقشيش الذى سيتقاضاه اتفه ؛ فان هذا المبلغ كبير بالنسبة لأموالى .. وانه ليس من حقه ابدا ان يقف الى جوارى ولا يرانى .. وان يستمع الى دون ان يتفضل مشكورا فينظر الى ذقنى التى حلقتها بعناية .. وملابسى النظيفة الانيقة والتى تدل على اننى اجنبى على درجة من الثراء .. اى اننى قادر على ان اعطيه بقشيشا اكبر .. ولكن ما هو هذا البقشيش الذى سوف ادفعه .. انه لا يزيد على عشرة قروش .. ولتكن عشرة قروش فما الذى اريده ان يفعل بهذه العشرة او هذه العشرين ؟ اريده ان يعبرنى أن يحترمنى .. فقلت له : لا اريد شيكولاته ..

— حاضر .

— وان تكون الصودا من ماركة سان بلجرينو ..

— هى الوحيدة التى عندنا ..

— أما البسكويت فهو الذى اريده بالشيكولاته ..

— هو الوحيد الذى عندنا ..

— وهل من الممكن ان ادعو هذه الفتاة لتجلس معى هنا .

— ممنوع .

— انها طفلة صغيرة متسولة ..

— لأنها كذلك يا سيدى .

— فاذا اصررت .

— انا متأسف .. ممنوع .

— ولكنى مصر على ادعو الى مائدتى المتواضعة مواطنة ايطالية

— مواطنة ايطالية ؟ !

وتركنى .. واتجه الى داخل المقهى ..

ولا اعرف لماذا خطرت لى فكرة استدعاء هذه الفتاة الصغيرة التى وقفت امامى ومدت يدها عبر السور تبيع الصور الدينية وتماثيل الطيور وحيوانات .. وربما كان السبب الحقيقى هو اننى لا اريد ان اكون مجرد « كتلة » تشغل أحد المقاعد .. فالجرسون لا يرى الا كتلة من اللحم والشحم على أى مقعد ..

ثم يسألها دون أن ينظر اليها .. ثم يختفى ويعود بالطلبات .. فهو عمل آلى .. وهو آلة .. والزبون شيء .. اى شيء ..

وتضايقت من أن اظل « شيئا » مدة طويلة ..

فانا شيء فى كل مكان اذهب اليه.. لا الفت النظر ولا الأذن.. ولا العقل .. يرانى صاحب البنسيون فيخفى راسه فى الورق يبحث لى عن جواب او عن رسالة او يعطينى مفتاح الغرفة .. وبحركة آلية يقول : صباح الخير .. او أصبح على خير .. او يقول تعليقا مضحكا .. وعندما يطلبنى التليفون فانه لا ينطق اسمى وانما يقول : نمرة ٢٠ هنا .. او ليس هنا .. او يقول : آه الفيلسوف هنا.. آه لقد خرج فى الصباح فيلسوفا ولا اعرف كيف عاد الآن .. لعله شاعر الآن .. او يقول : آه .. كتب اخرى .. لا اعرف هل ما يزال صاحبنا يأكل الكتب .. او يبيعها .. آه .. من نمرة عشرين آه ..

ولذلك قررت الا اكون شيئا فى هذا المقهى .. وأن يدور بينى وبين الجرسون كلام .. وان أثير قضية .. وان تكون هذه القضية مخجلة لأحد منا نحن الاثنين .. فلا يزال الخجل احد ينابيع الوجود الأخلاقى .. والاجتماعى .. وهذا الموقف اجتماعى وأخلاقى .

وعاد الجرسون ومعه مدير المحل .. وفى عينى المدير رجاء بألا افعل ذلك .. وانه مستعد ان يقدم لهذه الفتاة اى طعام على حساب المحل ..

ولم اكن اريد ان ادخل فى مناقشة .. وانما فقط ان ينظر لى احد فى عينى .. وان ينتظر ما أقول .. ولذلك لم اتمسك بموقفى ..

ومددت يدى خلال السور الحديدى أعطيها شيئا ..

وقبل ان تمتد يد الفتاة قال لى مدير المحل : اشتر منها اى شيء .. فهى بائعة صغيرة جميلة .. ويجب أن تكون بائعة .. واذا تعلمت وكبرت فانا اعدها بأن أجعلها تبيع الزهور هنا فى داخل المطعم ..

ولم تصدق الفتاة ما سمعت ..

وامتدت يدى تشترى وتدفع أكثر .. وامتدت يد المدير ..

وشكرنى المدير .. واعتذر الجرسون .. واستعجلت الآيس كريم فاننى استحق التكريم .. وكرمت نفسى .. وانتقمت من الايطاليين الذين جعلونى « شيئا » سياحيا متواضعا !

ولكنى قبلت أن اكون شيئا واقل من شيء عندما ذهبت الى جزيرة كابرى وفاتتنى الباخرة العائدة من كابرى الى نابلى .. ولم يكن معى جواز السفر .. فقد تركته فى الفندق فى نابلى .. ومعنى ذلك اننى لا استطيع ان ابيت فى اى فندق .. ولا فى اى بنسيون .. ولا استطيع ان اتمشى فى الشوارع حتى الصباح .. فكابرى ليست بها شوارع .. فالشوارع قصيرة جدا .. او هى طرق تعلو وتهبط بعنف .. ولا استطيع ان اركب حنطورا يطلع وينزل طول الليل .. ربما كان هذا ممكنا فى فرنسا .. او فى اليابان او فى هونج كونج .. ولكنه ليس ممكنا فى كابرى .. ولم أعرف كيف اتصرف بسرعة .. ولكنى قررت ان اتخلص من الموقف الصعب .. فعند الثانية عشرة مساء بدأت المطاعم تقفل أبوابها .. ولكن الكباريهات ما تزال مفتوحة .. وبعد الكباريه ما الذى استطيع ان افعله حتى الصباح .. او حتى الحادية عشرة عندما تعود اول باخرة الى نابلى .. انها ساعات طويلة جدا على الذى لم ينم منذ يومين ..

وبعد سهرة سخيفة جدا فى كباريه من الدرجة الثالثة خرجت الى الشارع .. الجو بارد .. الريح شديدة .. الموج مرتفع .. وليس فى الامكان ان اتحدث الى اى احد .. وأحاول أن أكون ظريفا .. وقد انجح فى المحاولة .. ولكن لا يمكن ان يكون اى أحد ظريفا معى ومتسامحا لدرجة ان يقول : ياه .. بس كده .. يا راجل اعتبر البيت بيتك .. انا سأترك لك سريرى وانام فى المطبخ .. خد راحتك !

او يقول : آه .. طيب ممكن تنام فى الصالون ..

او يقول : اعطيك مقعدا وتجلس عليه أمام الدكان .. وقبل أن تشرق الشمس يكون الشاى والسندوتش تحت قدميك !

او يقول : الا تزعم انك قرأت كثيرا فى كتب الشطرنج .. مارأيك فى ان نلعب دورا حتى الصباح !

او يقول : ضع يدك فى جيبى وانا اصرخ .. واقول : حرامى .. واذا لم اجد احدا يمسكك .. فانا امسكك واتركك فى القسم حتى

الصباح .. وفى الصباح أعتذر لك عما حدث واقول اننى كنت مخمورا !

وطردت هذه الاوهام .. وبشعور غريب دفعت الباب .. وانفتح الباب .. ولم أر أحدا .. وفتحت عينى جيدا .. ولم أر أحدا .. وقلت للظلام الذى انفجر فى وجهى من داخل الباب الصغير : مساء الخير ..

وسمعت صوتا يرد التحية .. وفاض النور .. وظهرت مقشة كهربية .. وعلى المقشة انحنت سيدة عجوز ..

ـ هه .. وانت كمان عاوز ايه ؟ !

ـ نسيت جواز السفر .. واريد ..

ـ ادخل .. واقفل الباب وراءك ..

ودخلت واقفلت الباب ورائى .. واغرقنى النور .. أكثر .. وانفتح باب .. ووراء الباب وجدت شابا اعتقد انه هندى .. قد نام على الارض بعد أن خلع معظم ملابسه ..

وقالت العجوز : تنام هنا ؟

قلت : لا .. اساعدك ..

وضحكت وهى سعيدة : انت ولد طيب !

وكانت هى أطيب منى عندما قدمت لى كوبا من القهوة السادة .. ثم كوبا آخر .. واثناء وقوفى فى المطبخ وراء طابور طويل من الاطباق واكوام من السكاكين والملاعق والشوك .. وحنفيات الماء تغلى من ورائى .. وبعد ساعة جاءت العجوز تقول : نصيحة يا ولدى .!

وتوقفت لاستمع شيئا جادا .

فقالت : اذا قلت لسيدة شيئا فلا تتراجع عنه .. وكل كلمة تقولها للمرأة هى حق مكتسب لها .. فالمرأة قد سمعت كلاما كثيرا ولم تجد الا أفعالا قليلة جدا .. لذلك فهى لا تكاد تسمع الكلمة حتى تتعلق بها كأنها آخر طوق نجاة فى الدنيا ..

ومسحت عينى انتظارا لتوضيح أكثر .

فقالت وهى ضاحكة : انت الآن طبعا نادم على انك أعلنت عن رغبتك فى مساعدتى هنا .. اذهب الى هذه الغرفة وحاول ان تنام

ثلاث ساعات .. سأوقظك فى السابعة ..

وتركتنى نائما حتى التاسعة ..

وعندما صحوت من نومى لم اجد احدا فى البيت ولا حتى الشاب الهندى ..

وبحثت عن بعض ملابسى فوجدت العجوز قد غسلتها وعلقتها على حبل أمام البيت .. مناديلى وجواربى وقميصى ..

ما اسمها ؟ من هى ؟ أين هى ؟ لا أعرف الآن .. ولم أعرفه حتى فى ذلك الوقت .. انها ايطالية طيبة .. انها ام طيبة .. بل أنها الطيبة كلها !

وكان لابد ان انتظرها حتى تعود .. لكى اشكرها بكل ما تجدد فى جسمى ونفسى من حيوية !

وجاءت السيدة وكأنها لا تريد أن تعلق على ما حدث او على وجودى . وانما قالت كأننى احد نزلاء بيتها ومطعمها الصغير : نمت جيدا ؟

قلت : شكرا لك !

وضحكت : سوف تنسى ..

وقلت : انا سوف أنسى .. وأنت ليس عندك ما تذكرينه ؟

قالت : هذا ..

اى هذا الذى صنعته لى .. او هذا الشخص الذى هو أنا ..

وعادت تقول : انك لم تكلفنى شيئا .. أنا أعيش وحدى .. والبيت خال .. والسرير خال .. ومنذ مات ابنى فى حرب الحبشة وانا قد اتخذت هذا القرار .. وهو الا اقفل بابى فى وجه أحد .. وهذا هو السبب فى انى جعلت اسم المحل : الباب مفتوح دائما .. والناس هنا يضحكون ويقولون : ان الباب مفتوح دائما .. وانا غير موجودة دائما .. لاننى أذهب الى السوق وأشترى كل شىء لنفسى .. ولذلك اترك المحل معظم الوقت .. ولم يختف من بيتى عود كبريت واحد .. منذ عشرين عاما !

واتجهت العجوز الى صندوق فى الحائط وفتحته واعطتنى طاقية من الحرير وقالت لى : على بركة الله يا ابنى .. ضعها على رأسك .. الله يحميك .. ويرحم روحه فى السماء !

⊙❖⊙

ولا اعرف كم من المرات ذهبت فيها الى ايطاليا .. ربما عشرين .. ربما ثلاثين مرة .. فهى فى الطريق الذهاب الى دول الشمال .. وفى طريق العودة ايضا ..

ولكن هذه الزيارات المتكررة لم تجعل طعم ايطاليا كالخبز .. ولا مذاقها كالماء .. انها دائما جديدة .. انها بلاد سياحية .. اعتادت ان تكون عروسا لكل سائح .. سواء اقام ليلة .. فهى عروس ليلة .. او اقام شهرا .. فهى عروس شهر . . والدولة الايطالية تعلم انها تكسب الملايين من حفلات الزفاف الدائمة لكل سائح أوروبى أو امريكى او افريقى او اسيوى .. ولذلك فهذه العروس قد اتخذت أسلوب شهرزاد فهى تحكى كل ليلة قصة .. ملايين القصص لمليون شهريار ..

وافلحت شهرزاد الايطالية ان تؤكد لشهريار الاجنبى انه الوحيد الذى فى قلبها وعلى ذراعها وعلى صدرها .. وانه فتى احلامها وكنز مستقبلها .. وانه ايضا فريسة شباكها وضحية غرامها .. وانه تفاحة وانه بذرة فى تفاحة وانه قشرة تفاحة .. وانه فى صناديق الزبالة بعد ذلك .. وكلما اغتسلت صناديق الزبالة . وامتلأت الصناديق بالتفاح . ووقفت السفن والطائرات تلقى ما فى بطونها من السياح .. اقيمت الشوارع .. نصبت كأنها مسارح فخمة .. وانتظرت الوافدين الجدد .. بالقصص الجديدة .. بمليون .. بعشرين مليون شهرزاد .. هن اخوات وبنات خالات : صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى ..







انها معادلة صعبة :

ان يعيشوا على مصائب

الانسانية .. دون ان تصيبهم !







يعني إيه : خوف ؟!

أول مرة المس فيها الارض السويسرية والجبال السويسرية واللحم والدم السويسرى عندما ذهبت الى محل البن البرازيلى فى القاهرة ورايته .. رأيت ذلك الرجل الطويل العريض الذى يمشى على الارض ويدب .. ويحاول ان يؤكد لاحد من الناس ان الاسفلت يمكن أن تغوص فيه الاقدام .. وعلى الرغم من ان قدمه لم تترك أى أثر على اسفلت الشارع سليمان باشا .. فان هذا الرجل لم ييأس .. انه يحاول .. انه يمشى بسرعة ويدب . ويلتفت بحدة وهو يشبه عقرب الثوانى وسط أناس يشبهون عقارب الدقائق وأحيانا عقارب الساعات والسنوات .. ولكنه ينفذ مخططا فى رأسه .. هذا المخطط جعله سليم الجسم .. متين البنيان .. فى الثمانين ويبدو كأنه فى الاربعين .. انها صحة .. انها سويسرا ..

وفى البن البرازيلى عندما رايته فرحت .. وبلا تفكير مددت يدى أصافحه .. وبلا تفكير فرحت .. فقد رأيت هذا الرجل أنه الدكتور ران الذى كان يدرس لى اللغة الالمانية فى الجامعة

وظلت يدى ممدودة . وهو يسألنى : من انت ؟

وظلت يدى ممدودة . فالرجل يرفض ان يسلم على شخص لا يعرفه .. ووضح من ابتسامتى التى تقلصت .. انها كانت ابتسامة تلميذ لأستاذه .. فتحولت الى ابتسامة تلميذ لم يعد تلميذا .. ثم تحولت الى غضب مهذب من خواجة قليل الذوق .. ثم بسرعة تحولت الى اعتراف بالفارق بينى وبينه .. بين الشرق والغرب .. ثم الى تقرير فارق ثابت .. وبناء حائط جامد بارد بينى وبينه .. وعبر هذا الحائط البارد تشعبطت كلماتى لتقول له : أنا تلميذك فلان ..

ولم احفل بعد ذلك بيده المنيفة التى امتدت لتصافحنى

ولتعتذر لى .. ولم اهتم كثيرا بانه يقرأ لى مقالاتى .. وانه اعجب بقضايا اثرتها .. وانه تمنى لو يلقانى ليناقشنى ..

وكانت كلماته مثل رصاص انطلق على لوح من زجاج يصد الرصاص .. فتحولت الى مجرد طرقعة .. صوت وصدى .. ثم جاءت تحيته وهزته لراسه كمساحة تزيل المطر من فوق لوح من الزجاج ..

وفى البن الاسود ابتلعت هذا الموقف البايخ ..

انه موقف سويسرى ..

وهذا الرجل قطعة من ارض وشوارع ووديان وجبال وغرابة وصلابة وصحة وميكانيكية البلد التى أسمها سويسرا !

⊙✣⊙

ولم تتغير هذه الصورة كثيرا عندما ذهبت الى سويسرا نفسها .. ففى بنسيون « الزيتون » بمدينة جنيف ، أعجبتنى صاحبة البنسيون . فهى وحدها التى تطبخ وتنظف . وتزرع الحديقة وتقلمها . وهى التى ترد على التليفون وتعيد تسوية الغرف . وعندها بعد ذلك متسع من الوقت لتضحك وتجامل ..

وهى تشبه ترسا من النحاس اللامع يدور فى ساعة فضية نظيفة . ولا علاقة لها بشىء آخر فى هذا العالم .. انها ست بيت .. أو صاحبة بيت .. وهذا يكفيها ..

فهى فى حالها .. وكل الناس كذلك !

سألتها : الم تعرفى الحب ؟

قالت : وانا صغيرة .. وانتهى كل شىء !

ـ ما هذا الذى انتهى ؟

ـ الحب !

ـ وكيف بدأ ..

ـ انت تعرف .

ـ ولكن الذى لا اعرفه هو كيف انتهى ؟

ـ هو مات .. وانا ما ازال حية !

ـ اختصرت الموقف جدا ! ؟

ـ انا لم اختصره !

ـ ولكن الحب ليس حكما نهائيا .. انه حكم يمكن الرجوع فيه فالقلب الذى احب مرة .. يمكنه أن يحب مرة أخرى وبشكل آخر .. فالقلب كالساعة لا يدق مرة واحدة .. ولا يمتلىء مرة واحدة .. انه يدق دائما .. ويظل يمتلىء بايدينا .. ويمتلىء بنفسه ..

ـ انا ساعة تذكارية .. لا تدق ولا تمتلىء !

ـ ولكنك ما تزالين جميلة ..

ـ اذن .. ساعة تذكارية جميلة ..

ـ وتذكارية لماذا ؟

ـ فليس عندى وقت للحب !

ـ ليس عندك وقت .. من الذى عنده وقت ؟

ـ انت .. انتم ..

والحقيقة ان المشكلة ليست الوقت .. ولكن هى طبيعة السويسريين رجالا ونساء .. ليسوا خياليين ولا شعراء .. وانما هم أناس عمليون جدا .. وهم يفضلون القلوب الخالية على القلوب الثقيلة المليئة .. لان القلوب الخالية مثل الغرف النظيفة. وهم يفضلون النظافة على أى شىء آخر !

وليس من الصدف أن تتفوق سويسرا فى صناعة الساعات .. انها صناعة الدقة . صناعة الزمن . صناعة الارقام والتروس والعقارب .. صناعة قطع الغيار الدقيقة .. صناعة الرقيب الحسيب الذى يعد عليك انفاسك .. ودقاتك .. وتربطه فى يدك .. أو يرتبط بك من يدك ..

ان حياة الرجل السويسرى كالساعة منظمة ..

فمن المألوف جدا أن تجد فى البيت السويسرى جدولا على الحائط .. هذا اذا انطبعت أفكاره على الحائط فى ساعة ندم أو قرف ـ وهذا الجدول نصه : الاثنين : اجتماع اللجنة المدنية.. الثلاثاء : اصلاح الزحافات .. الاربعاء : كوتشينة .. الخميس : جمعية خيرية .. الجمعة : لجنة الحزب .. السبت : السينما مع المدام .. الاحد : الذهاب الى الجبال ..

ولو حدث أنك زرت أحد أصدقائك ـ ان كان فى الامكان أن يكون لك أصدقاء سويسريون لاى سبب ـ فى يوم ١٣ مايو سنة ١٩٥٠ الساعة الثالثة و ١٤ دقيقة . وذهبت الى نفس الموعد بعد عشر سنوات فستجد صديقك فى نفس المكان .. من البيت .. على الكرسى المجاور للنافذة متمددا بينما زوجته تروح وتجىء فى البيت .. وكل السويسريين يتمددون فى بيوتهم وينتظرون فالبيت للسيدة وليس للرجل السويسرى أى دور او أى وزن فى بيته .. فهو عندما يدخل من الباب الخارجى ينتقل الى دولة أخرى ذات سيادة عليه .. الرجل وزوجته فى تكشيرة واحدة.. وارتدى كل منهما ملامح الجد والوقار .. مع انه لا يوجد ما يبرر ذلك .. فهو رجل ظل يعمل طول النهار كالنحلة .. لا يكف عن الانتقال من مكان الى مكان فى نظام ميكانيكى دقيق . وهى أيضا لم تكف عن الحركة من البيت الى الدكان .. ومن الدكان الى السوق ومن السوق الى البيت .. وفى كل غرف البيت .. تضع طبقا هنا .. وزهرة فى النافذة هناك .. وعينها تلتقط ذرات التراب على الكراسى وعلى الكتب .. وتنفخ وتنفض .. والذى يرى الزوجة السويسرية وهى تنفض التراب يخيل اليه أن السويسريين قد عدلوا نهائيا عن استخدام الاطباق وانهم سوف يأكلون على الارض .. فالارض كالصينى النظيف .. وكل شىء فى البيت يدل على اهتمام غير عادى .. مع أن هذا الاهتمام يحدث كل يوم ..

اذن هذه الزوجة فى نشاطها ساعة محددة ودقيقة .. والزوج يتطلع هو أيضا الى هذا الموعد .. انه موعد الغداء .. للاثنين طبعا وجاء موعد الغداء ودخل الزوج وفى نفس اللحظة التى يدخل فيها الزوج تخرج الزوجة من المطبخ .. كل شىء يتم بهدوء .. هو يدخل وهى تخرج .. هو يقعد وهى تقدم الطعام .. هو يقترب من المائدة وهى أيضا .. هو يأكل وهى تأكل .. هو يمضغ وهى تمضغ .. .. كأنهما يعزفان لحنا غير موسيقى على نوته موسيقية .. أو لعل الرجل ـ خصوصا الرجل ـ عندما ينظر الى السقف من حين الى حين يبحث عن المايسترو الذى يضبط حركة الطعام من الطبق الى الفم .. ومن الفم الى المعدة .. أما الزوجة فتكتفى بمتابعة الزوج ولا داعى طبعا لان تنظر الى رجلين فى وقت واحد .. فرجل مكشر أثناء الاكل يكفى جدا !

أما لماذا هو مكشر ٠٠ وهى أيضا ؟

هذا السؤال معناه : لماذا هو سويسرى ٠٠ وهى أيضا ؟

فالسويسرى ليس باسم الوجه ٠ انه متجهم ٠ جاد ٠ ناشف ٠ ضخم ٠ ولكنه منظم فى جميع الحالات ٠ أنا لم أر سويسريا يبكى ٠ لانى لم أجد هذه الفرصة السعيدة ٠ ولانه من الصعب على السويسريين أن ينفعلوا ٠ ولان يديه مشغولتان فان نزلت دموعه أضطر أن ينزع احدى يديه من العمل الذى يؤديه ويبحث عن منديل ٠٠ وكل هذا يؤدى الى ارتباك عام ٠٠ ولان الدموع اذا نزلت من عينه يجب أن تنزل بترتيب ٠ ويظهر أن السويسريين لم يفلحوا فى ترتيب دموعهم ، ولذلك عدلوا عن البكاء ٠٠ لانه أما أن تكون عملية البكاء منظمة الدموع ، أو .. لا بكاء .. فلا بكاء !

الرجل السويسرى حريص على أن يكون فى حاله ٠٠

فالدنيا كلها تتمزق وتنهار فى حروب من مئات السنين وتظل سويسرا مزدهرة غنية متماسكة وسط عالم منهـــار ٠٠ واذا حاول انسان أن يهرب ، فالى ســــويسرا ٠٠ اذا حاول أن يتجسس فالى سويسرا ٠٠ اذا حاول أن يودع أمواله بعيدا عن الايدى والعيون ففى سويسرا ٠٠

وسويسرا هى البلد الوحيد فى الدنيا الذى لا يعرف الخوف ٠٠

تصور شعبا لا يعرف الخوف ٠ أناس لايخافون من اليوم ولا من الغد ٠٠ لا يخافون لا من الفقر ولا من الجوع ولا من المرض ولا من البطالة ٠٠ ولا من الحرب !

أجيال وراء أجيال كلها لا تعرف الخوف ٠٠

لا تعرف الفزع الذى يدق على الباب ٠٠ لا تعرف الخط التليفونى الذى ينقطع لان أحدا يستمع الى التفاهات التى تقولها لاى انسان ٠٠

أناس لا يعرفون الشارع لانهم طردوا من أعمالهم ٠٠ لا يعرفون الاحالة على المعاش الا فى الثمانين ٠٠ لا يهتدى اليهم الموت الا فى التسعين ٠٠ يظل الموت يطاردهم فى الجليد وفى الوديان ٠٠ ثم يلهث وراءهم ولا يدركهم الا بعد أن يكون أى مصرى ولد معهـــم فى نفس اليوم قد مات من عشرين عاما !

لقد التزمت سويسرا الحياد بين المشاكل الدولية ٠ ٠

والتزمت الحياد بين مشاكلها الداخلية ٠٠ فالدستور ينص على أن تظل الخلافات القومية كما هى ٠٠ ففى سويسرا أربع لغات : الالمانية والفرنسية والايطالية والرومانش ـ وهى اللغة السـويسرية التى يتكلمها عدد قليل من الناس ـ ولكن الدستور صريح فى أن يحتفظ كل انسان بلونه ودينه ولغته ٠٠ وهذه قضايا لا يناقشها أحد من الناس !

هذا قرار اتخذه الشعب السويسرى سنة ١٩٣٨ : أن نبقى على وفاق مع خلافاتنا !

وبعض المفكرين ثائرون على هذا الحياد المزعوم من جانب سويسرا ٠٠ فهى ليست عضوا فى الامم المتحدة ٠ فكأنها بذلك ليست عضوا فى أسرة ٠ ليس لهـــا دور ٠ ليس لهـــا وزن ٠ ولا موقف ٠ ومن الضرورى أن تكون عضوا له موقف ووزن ٠٠ وهذا رأى !

ولم يتفق السويسريون على معنى الحياد ٠٠

وانما اتفقوا على أن يقول كل انسان رأيه ٠٠ ويتمسك به ٠٠ أما الاتفاق على رأى واحد فى هذه الخـــلافات ، فليس ضروريا ٠٠ والضرورى أن يختلفوا ٠٠ والذى ليس ضروريا أن يتفقوا على معنى الحياد ٠٠

وقديما ســـألوا الحكيم كونفوشيوس : ما الذى تفعله لو كنت امبراطورا للصين ؟

فقال : أحدد معانى الكلمات !

ولذلك فمن المســـتحيل ان يكون كونفوشـــيوس امبراطورا لسويسرا !

هذا اذا كان من الممكن أن يكون هناك امبراطور على الاطلاق ٠٠ لان السويسريين يؤمنون بالانتخاب وحرية الرأى ٠٠ وحرية اختيار الحاكم ٠٠ ولا يرون أن الفارق بينهم وبين الحاكم كبير ٠٠ واذا اختاروا الحاكم اختاروه هو وحده .. فلاحاشية ولاامراء ولا خلفاء ٠ بل أن زوجة الحاكم نفسه ٠٠ أى رئيس الدولة ليست لها صفة فهى مجـــرد « مدام » ٠٠ ولا زوجة الحاكم ولا كل النساء لهن صوت فى الانتخابات ٠٠ فالمرأة لا تعطى صوتها ٠٠ والمرأة تتقاضى أجرا أقل من أجـــر الرجل ٠ اذا اتفقا فى كل شىء : المؤهل ٠٠ والوظيفة ٠٠ وســـاعات العمل !

والسبب هو : ايهما ينتج اكثر ..
في سويسرا يقولون : الرجل ..
ونحن لم نتفق على رأى في هذه القضية .. لاننا لسنا سويسرا .. ولا يمكن أن نكون !

ولكن لا شيء يتم في البيت او في الغيط او في الشارع دون سؤال الناس عن رأيهم ..

مثلا : اذا فرضنا أنك صاحب بيت في سويسرا .. ولسبب ما .. قررت أن تهدم هذا البيت .. وبفلوسك تقيم بيتا آخر .. لا تنس أنك سويسرى وطني مخلص .. وفلوسك موجودة في البنوك السويسرية وقد جاءتك من طريق حلال .. وبهذه الفلوس تريد أن تهدم بيتا وتقيم بيتا آخر ..

وسوف تلجأ الى المهندسين والخبراء لهدم البيت .. وستلجأ الى المهندسين والعلماء لبناء بيت آخر ..

ومع حسن نيتك فانك لا تستطيع أن تهدم بيتك .. وأن تبنى بيتك .. فهناك شروط كثيرة ..

أولا : يجب أن يتأكد الشعب السويسرى في هذه المدينة أن بيتك يجب أن يهدم . وأنك لست صاحب نزوة .

واذا فرضنا انك صاحب نزوة وتريد أن تهدم بيتك وتبدد أموالك ، فما دخل الناس ؟

الناس في سويسرا لهم دخل : فليس من حقك أن تزعجهم من غير مناسبة .. تهدم وتبنى .. وليس من حقك أيضا أن تطرد السكان بذوق لانك صاحب نزوة مالية ..

واذا فرضنا ان بيتك هذا يستحق الهدم فكيف تهدمه .. لا بد أن يتأكد للشعب السويسرى أن البيت يجب أن يهدم لانه قديم أو منهار .. ولان الخبراء أكدوا بصورة علمية أن هذا البيت يجب ان يهدم . فاذا تقرر ذلك أجريت أعمال هندسية كثيرة من بينها دراسة طبيعة التربة .. وعملية جس التربة تتم بآلات حديثة .. ويتولاها مهندس أو عامل ماهر ..

ولا بد من استفتاء الشعب على بناء البيت : هل يبنى من دور او دورين أو ثلاثة أو أربعة .. وعلى الجيران أن يذهبوا ويدلوا بأصواتهم فهذا يعترض لان اقامة هذا البيت ستفسد منظر الجبال والغابات .. او أن هذا البيت اذا ارتفع سوف يحجب الشمس .. أو يمنع الهواء

.. ولا بد أن تلقى هذه الاعتراضات اهتماما عاما .. ولم يحدث كثيرا ان ادت هذه الاعتراضات الى تعطيل بناء عمارة من العمارات .. لا لان هذه الاعتراضات لا قيمة لها .. ولكن لانه يندر أن يهدم بيت ويقام بيت آخر في مكانه دون أن يكون هناك أسباب وجيهة جدا لهذه العملية المعمارية ..

وقد سمعت من سفيرنا في سويسرا محمد توفيق عبد الفتاح أن السفارة أقامت جناحا ملحقا بالسفارة . وبعد أن تم بناء الجناح فوجئت السفارة بأن أحد الجيران السويسريين يشكو السفارة الى القضاء لا لان السفارة اقامت جناحا .. فهذا من حقها مادام الجناح قد استوفى كل الشروط الفنية .. ولكن لان لون هذا الجناح يؤذى العين .. يؤذى عينيه ..

وقد رأيت هذا الجناح .. وفتحت عيني فيه وفي ألوانه ولم أشعر بأى أذى ..

ولكن الذى ضايق هذا الجار السويسرى هو أن الجناح قد طلى باللون الابيض الرمادى .. وهو لون غريب عن الوان كل البيوت المجاورة .. فهذا اللون صارخ .. تماما كالصوت الصارخ الذى يوجع الأذن .. فهذا اللون يؤذى العين .. فهو جزء من الضوضاء اللونية ..

ومادام الناس يريدون الهدوء الصوتى في بيوتهم ، فهم أيضا يريدون الهدوء اللونى والضوئى لعيونهم ..!

وأنا احيى هذا السويسرى عشرين مرة .. مرة واحدة لان له رأيا .. ومرات لانه مصر على هذا الرأى ولم يغير موقفه منذ ثلاث سنوات !

◎◆◎



هذه النقطة الجاهلة!

من المشاهد الغريبة فى سويسرا أن تجد أحدا كريما متحمسا شهما.. وتحس لأول وهلة أنه ليس من أصل سويسرى . وانه لابد أن يكون أجنبيا .. مع انه لا يوجد شىء اسمه « الاصل السويسرى » .. فالسويسريون يتكلمون الفرنسية ولا يشعرون أن فرنسا هى وطنهم الأم .. ويتكلمون الالمانية ، وألمانيا ليست وطنهم .. والايطالية ، وايطاليا ليست وطنهم الاول .. انهم خليط .. أو هم سلطة : طماطم وخس وخيار .. فى اناء من الكريستال النظيف الانيق .. ولكن عناصر السلطة تعيش معا . ويتكون منها هذا الطعام الشهى ، ولكنها لا تختلط تماما .. وانما كل واحد يحرص على هذا الخلاف الواضح ..

ولذلك اندهشت عندما دعانى مسيو أحمد هوبر الصحفى السويسرى الذى أسلم وتزوج من سيدة مصرية سمراء رقيقة .. أنه شاب فى غاية الحيوية والحماس والدقة .. فى غاية السويسرية .. وهو واسع الافق .. وعلى إلمام دقيق بقضايا العالم السياسية .. وبقضايا الشرق .. وعلى فهم كاف بتاريخ الاسلام والمسلمين .. وهو رجل كريم خدوم .. أو أصبح كريما .. وهو على خلاف السويسريين تجده هو رب البيت .. هو الذى يدعوك الى الطعام .. و « يعزم » عليك .. ويكاد من شدة حفاوته بك أن يأكل لك أيضا ..

ومن المؤكد أنه لا يريد منا أن تنهض بعد الاكل مباشرة .. هذا مؤكد . ولكن نظراته طاردة .. انها تكاد تسحب الطبق من يدك وتلقى بك على الباب الذى ينفتح تلقائيا بمجرد اقترابك منه .. وعندما تسقط على السلالم النظيفة . وتتماسك وتخرج من الباب النظيف الى الشارع النظيف .. وتتطلع الى شقته تجده أنه قد أطفأ النور .. ودخل فى الفراش ليصحو بعد ذلك بخمس ساعات و ١٢ دقيقة !

لم يحدث شىء من ذلك . هذا أكيد .. ولكن ترجمتى الدقيقة لنظراته السويسرية تقول ذلك ..

واذا تحدث اليك فى موضوع أدبى أو فلسفى أو تاريخى .. بالفرنسية أو بالانجليزية أو بالالمانية فهو رجل شاعرى .. وهو مفكر واضح .. وهذا الحماس والوضوح يجعلك تنسى أنه سويسرى .. ولكن عينه التى لا تبعد كثيرا عن النظر الى الباب تؤكد لك أنه من الضرورى أن تنهض .. لانك سائح ولانه موظف .. ولانك مصرى ولانه سويسرى .. ولانه سويسرى غير عادى ، ولانه من الضرورى أن تشجعه على ذلك فلا يكون كرمه عقوبة يستحقها وذلك بأن تسهر عنده حتى الصباح .. مثلا !

وهذا الرجل أحمد هوبر مختلف عن السويسريين فى شىء جوهرى جدا : انه يقنعك .. ولا يحاول أن يعلمك !

ومعظم السويسريين لا يهمهم كثيرا أن تقتنع .. انهم مثل المدرسين يقول كل واحد منهم كلمته .. ثم يمضى .. أو مثل رجال الدين كل واحد ينشد لك موعظته ثم يرفع يديه الى السماء لتنتهز انت فرصة اتصاله بالسماء وتمضى لحالك .. على الارض !

وهذا سر المتعة التى لا تنتهى فى الحديث الى المواطن السويسرى أحمد هوبر !

⊙❖⊙

وعندما ذهبت الى أحد الساعاتية فى سويسرا .. وما أكثرهم .. أنهم يشبهون مطاعم الفول فى القاهرة .. ومحلات الحلويات فى دمشق .. وقدمت له ساعتى أريد لها زجاجة جديدة .. وأخذ الرجل الساعة ووضعها فى درج . وأعطانى وصلا . وقال : ليست عندى هذه الماركة !

قلت : لم افهم ..

قال : اننى لا اصلح كل انواع الساعات ، ولذلك يجب أن تذهب الى المحل الخاص بهذه الماركة ..

ومد يده الى التليفون وسأل احد المحلات .. او هكذا فهمت لانه يتكلم باللغة السويسرية التى هى خليط من الالمانية واللغة الرومانشية ..

واعطانى عنوان محل آخر ..

وذهبت .. والمحل الآخر أعطانى ورقة على أن اعود فى اليوم التالى .. لان زجاج هذه الساعة يجب أن يستحضر من المصنع .

والمصنع خارج مدينة برن .. ثم أن ماركات الساعات السويسرية لا عدد لها .. ثم أن من حق أى انسان ان يصنع ساعة وان يضع عليها الماركة التى تعجبه .. اما الماركات المشهورة فهى لا تصنع كل هذه الساعات التى تحمل ماركتها .. وانما الشركة الكبرى تعطى لشركات صغيرة حق استغلال هذا الاسم مقابل نسبة مئوية تتفق عليها ..

وفى اليوم الثانى عدت ..

ووجدت الزجاجة ، وسألت كيف يمكن خلع زجاجه وتركيب زجاجة اخرى ..

ورأيت كيف .. وهنا ادركت ان الساعاتية عندنا هم اناس يصلحون بوابير الجاز .. او البلاعات .. فلا توجد عند الساعاتية فى سويسرا : لا سكاكين ولا كماشات .. ولا احد يستخدم اسنانه فى فتح الساعة .. لا لان صناعة اطقم الاسنان لم تتطور الى هذه الدرجة ، ولكن لان هنـاك آلات دقيقة رقيقة .. تلمس الزجاج فيخرج كما تخرج الشعرة من العجين .. بنعومة وبلا ضوضاء ..

ثم ان كل انسان قد تخصص فى شىء ..

ثم ان كل شىء يتم فى هدوء الساعة وبرودة عقاربها ..

وأهم من ذلك ان للسويسريين طريقتهم الخاصة فى الاهتمام بك والترحيب بخدمتك .. فهم لا يصافحونك بحـرارة .. ولكنهم يحترمونك بحرارة باطنية غير واضحة على الوجه او فى الايدى التى تضغط .. وانت كسائح لا تطمع فى اكثر من الخدمات المجانية .. واعتقد انها بجاحة منك أن تطلب من الناس ان يخدموك مجانا .. وان يكونوا سعداء ايضا لذلك !..

⊙❖⊙

واذا كانت سويسرة بلدا لا يعرف الخوف .. فهى ايضا بلد لا يعرف التوسع ..

فالارض محدودة من مئات السنين ..

وكل شبر يمكن استغلاله قد استغله السويسريون .. ولذلك فهم يحاولون تجويد التربة راسيا .. بعد ان ضاقت بهم افقيا .

وهم لا يريدون اى توسع سياسى ايضا ..

والتوسع الوحيد الذى يحرص عليه السويسريون هو التوسع فى الخدمات وفى استثمار أموالهم فى الخارج .. ولذلك فالمورد الوحيد لاقتصادهم كله هو التجارة .. التصدير الى الخارج والاستيراد والخدمات ..

وسويسرا قد تطورت فى صناعات كثيرة ، كما انها اول دولة فى العالم استخدمت الكهرباء فى ادارة كل أجهزتها تماما ؛ وكان ذلك فى سنة ١٩٤٢ ..

وهناك تواريخ اخرى مشهورة فى سويسرا ..

ففى عام ١٨٠١ أقامت أول مصنع للنسيج ..

وفى عام ١٨٢٦ اصدرت أولى عملاتها المصرفية ..

وفى عام ١٨٥٠ انتجت اول ساعة لا تمتلىء بالمفتاح ..

وفى عام ١٨٦٧ كانت اول من انتج اللبن المسحوق ويحمل اسم نستلة ..

وفى عام ١٨٧٧ انتجت الساعة ذات الزنبرك ..

وفى عام ١٨٩٧ انتجت الحرير الصناعى ..

وفى عام ١٩٢٣ كانت شركة ساندوس الطبية اول من توسع فى استخدام الاعشاب الطبية ..

وفى ١٩٢٥ عرف العالم أول انتاج للفيتامينات يحمل اسم شركة لاروش العالمية ..

واذا كان السويسريون عندهم جنون النظافة .. فعندهم ايضا جنون الخوف من المرض . ولذلك فهم يراعون القواعد الصحية بوعى .. على عكس الامريكان الذين يعرفون ان هناك مرضا .. اى مرض .. ويواجهون احتمال المرض بتعـاطى الفيتامينات والعقاقير الوقائية .. ولا يفكر الامريكى فى المرض الذى يتقيه .. وانما هو يتقى كل الامراض الممكنة .. فمن المألوف أن تجد الامريكى يبتلع حبوبا واقراصا فى الصباح وفى المساء .. ويترك لبده الاقراص ان تتولى حراسته ضد الميكروبات .. اية ميكروبات .. اما السويسرى فهو يعرف الامراض المنتشرة ويتقيها بحساب لا لأنه بخيل فقط .. ولكن لانه دقيق جدا ..

ليست صحته هو فقط .. ولكن صحة الحيوانات الموجودة فى البيت .. **الكلاب والقطط والابقار وغيرها .. خصوصا ان هناك** بعض الامراض المشتركة بيننا وبين هذه الحيوانات .. وهـذه الامراض موجودة ومعروفة ، والوقاية منها معروفة ايضا . ومرض قطة او كلب مثل مرض اى طفـل يلقى نفس الاهتمام والهموم والسؤال عن صحته كأى كائن حى .. ووفاة قطة كوفاة انسان. **اما اذا حدث ان داست احدى السيارات قطة . فهـذه كارثة** للشارع كله .. واحيانا للمدينة من اولها لآخرها .. ويتوقع الناس ان يروا صورة الحادث فى التليفزيون وقد امسك كل واحد منهم **ورقة وقلما استعدادا للتعليق على الحادث .. او على التليفزيون** او على طلب للبرلمان للتحقيق فى هذا الامر الخطير ! .

اعرف صديقا مصريا جاء الى سويسرا من المانيا وتعلق اطفاله باحدى القطط . فاشترى القطة ، وبعد اسبوع واحد من اقامته فى سويسرا استدعاه البوليس لامر هام . التليفون يقول : لامر هام .. والاشارة من البوليس تقول : لامر هام .. ومنظر البواب وهو يرشد رجل البوليس الى شقة الصديق يؤكد : انه هام وكارثة وطنية ! ..

وذهب الصديق المصرى .. وفوجىء بأن كل الاحتمالات التى دارت فى راسه لا علاقة لها بأسباب الاستـدعاء الى البوليس ، فضابط البوليس يشير اليه ان يجلس لكى يشرح له : ما الذى فعلته القطة فى الحديقة ؟

ـ ما الذى فعلته ..

ـ انها حفرت فى الحديقة .. ثم تركت بعض مخلفاتها.. وانت تعرف ..

ـ اعرف . .ماذا فى هذا ..

ـ فى هذا كل شىء .. ان القطة مريضة ياسيدى .. عنـدها اسهال . تصور ! ..

ـ استطيع ان اتصور . فما الذى افعله انا .. انا شخصيا عندى اسهال ..

ـ افهم ذلك .. ولكنك لا تستطيع ان تفعل ما فعلته القطة ..

ـ طبعا .. لا افعل ..

ـ لماذا ؟ لان هناك مكانا مخصصا لذلك فى شقتك .. فأين اذن المكان المخصص للقطة ..

ـ هناك مكان .. ولكن القطة لم تفعل ..

ـ ولماذا لم تفعل .. لانها قطة غير متعلمة ..

ـ غير متعلمة ؟

ـ طبعا .. القطط يجب ان تتعلم اين تأكل واين تشرب .. واين تتخلص من كل شىء بعد ذلك ..

ـ ان هذه القطة قد اشتريتها ..

ـ كان يجب أن تسأل عن عادات هذه القطـة قبل أن تشتريها حتى لا تقف هذا الموقف .. الخ ..

باختصار : هذه القطة عندها اسهال اضطرها الى أن تذهب الى الحديقة .. ولسوء الحظ رآها البواب .. وذهب البواب واخبر البوليس .. لان القطة مريضة . ومرض القطة مسـألة صحية ، ولابد أن تعلم السلطات الصحية **بذلك .. حتى لا تنتقل** العدوى الى بقية الحيوانات والاطفال ، والبواب يؤدى بذلك واجبا وطنيا ، ويراه كل الناس موقفا طبيعيا .. وهو لم يضع وقته فى **الكلام مع صاحب القطة .. فصاحب القطة ليس البوليس وليس** الادارة الصحية .. ثم أن صاحب القطة متهم ...

وانصرف الصديق المصرى ..

وفى البيت جاء الطبيب ، واخذ عينات من مخلفات القطـة . وطلب التحفظ على القطة . واخذ القطـة فى صندوق . وبعد التحاليل ثبت ان القطة عندها اسهال حاد .. لانها قطة قداعتادت على الطعام المسلوق .. فلما اكلت الارز بالسمن واللحم بالسمن .. ذابت احشاؤها فى الحديقة ..

ولا بد من علاج للقطة ..

ولا بد قبل العلاج ان تتعلم القطة كيف تأكل وتشرب ، ولذلك يجب ان تذهب القطة الى مدرسة ، وعلى حساب صـاحبها .. وذهبت القطة الى المدرسة . وقررت المدرسة ان القطة فى حاجة الى شهر ..

وهنا قال صاحب القطة : انا لا أريدها ..

فكان رد ناظرة المدرسة : اذن ستظل القطة هنا تأكل وتشرب على حسابك.. وتتعلم ايضا الى ان نجد لها احدا يؤويها فى بيته ،

وضحك صاحب القطة وهو يقول : افرض اننى اخذت القطة واطلقتها فى الشارع .

وضحكت ناظرة المدرسة لهذه النكتة وقالت : فى هذه الحالة لن يسكت البوليس على ذلك ولا الصحف .. وربما ادى ذلك ..

ولم تقل الى طرده من سويسرا ـ وهذا ممكن ولهذا السبب الذى لا يتسم بالانسانية ! ..

ولم تعد القطة الى البيت لصعوبة الاحتفاظ بها .. فليس من السهل ان تأكل القطة وحدها الطعام المسلوق فى بيت يأكل فيه الاطفال الارز المفلفل وطواجن اللحم بالسمن .. ومن الصعب تربية قطة فى بيت به اطفال كثيرون لا يدركون خطورة الموقف القططى فى سويسرا الذى قد يؤدى الى سوء العلاقات بين شعبنا والشعب السويسرى ! ..

⊙✧⊙

وسويسرا بلد من الناحية الفنية مجدبة . فلا احد يعرف اسم فنان كبير فى اى نوع من فروع الفن ..

ربما كان المهندس العالمى لوكوربوزييه هو اشهر سويسرى فى دنيا المعمار ـ وهو يأسف لذلك اشد الاسف . لا على انه مشهور ، ولكن على انه سويسرى .. هكذا جاء فى مذكراته ، ولم يشرح لنا سر هذا الاسف ..

وربما كان المثال بول كلى من اعظم صانعى التماثيل فى العالم ، وهو سويسرى ..

وقد حدث اثناء تصوير فيلم « الرجل الثالث » فى سويسرا من اخراج كارول ريد وبطولة أورسون ويلز ان خطرت البطل عبارة جميلة ، فأضافها للفيلم . أما العبارة الصادقة فتقول : ان عصر النهضة الايطالية الذى ارتكبت فيه مئات الجرائم ضد البشرية قد اسفر لنا عن عباقرة الرسم والنحت فى التاريخ ..ولكن مئات السنين من الهدوء والسلام فى سويسرا قد اسفرت عن اختراع الساعة التى يخرج منها البلبل ويعلن عن الوقت ..!

ولكنها فى عالم الادب أحسن حالا ..

فقد ظهر فى سويسرا اديبان عظيمان بعد الحرب .

وهذان الاديبان من الالمان السويسريين . وهما يكتبان باللغة الالمانية . وهما لذلك يحركان الادب الالمانى والاوربى وهما قابعان فى الجبال العالية ..

وقد قابلت هذين الاديبين ..

وترجمت لكل منهما .. ايضا .

الاديب الساخر فريدريش ديرنمات . فقد ترجمت له مسرحيات : روموليوس العظيم . وقد ظهرت على المسرح وقام ببطولتها صلاح منصور وزوزو نبيل واخرجها سمير العصفورى .. وترجمت له مسرحية « هبط الملاك فى بابل » .. ثم مسرحية : « الشهاب » التى ظهرت على مسرح الجيب ـ اى فى المكان الذى لايناسبها . وبالاخراج الذى لايتفق مع طبيعتها ؟!

وقد لقيت ديرنمات فى بيته .. والتقيت بزوجته .

وتحدثت اليه طويلا فى الادب العالمى وفى ادبه .. وهو رجل رقيق .. يبدو سمينا قصيرا .. ولكن بعد لحظات من الجلوس اليه تجد السخرية فى عينه وفى عبارته .. واذا ضحك فهو يضحك من حنجرته ومن بطنه .. وهو رسام وموسيقى وشاعر ومهندس معمارى .. وابن قسيس .. وهو من احسن ادباء اللغة الالمانية ..

اما ماكس فريش.. فهو اهدا واعمق.. وسخريته فلسفية. وقد ترجمت له مسرحية « امير الاراضى البور » ..

ومن الغريب اننى عندما ذهبت الى فريدريش ديرنمات قدم لى عشرات من فناجين القهوة .. ولم انتبه الى هذا الاسراف . وظننت انه هو الذى يحب القهوة كثيرا . ولما سألته عن السبب قال لى : الستم تحبون القهوة هكذا .. فكلما فرغ فنجان صببت لك غيره ؟

ولما سألته عن الكتب العربية التى قرأها .. اعترف لى هو ايضا ـ كما اعترف لى قبل ذلك فى القاهرة البرتو مورافيا وسومرست موم ـ انه لم يقرأ غير الف ليلة وكتابا للامير ارسلان . وان معلوماته عن العالم العربى مع الاسف قليلة .. !

اما ماكس فريش فقد زرته مع سفيرنا محمد توفيق عبد الفتاح .. وكان الرجل فى انتظارنا . فى غاية الصحة والحيوية . وهو يؤكد

لك انه فى صحة جيدة ولا يشكو من أى مرض .. وقد اختار البيت الذى يقيم فيه على ارتفاع مدروس.. لانه عند هذا الارتفاع يكون الهواء منعشا والضغط معقولا .. وانسب ارتفاع لنشاط العقل الانسانى . وكان قد أعد لنا زجاجة من الويسكى . . واعتذرنا . واعتذر هو أيضا لنفسه لانه لايشرب نهارا ..

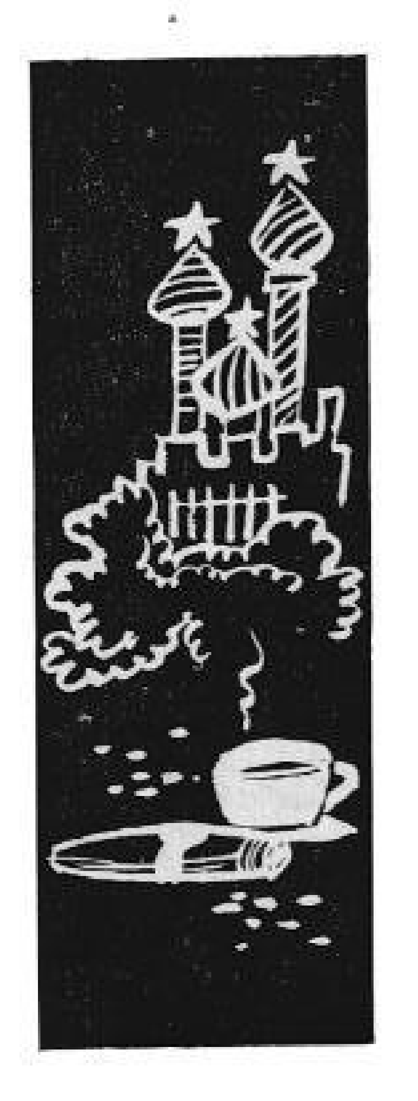
وظهرت فتاة تروح وتجيء. ليست جميلة. فقال ماكس فريش: انها خطيبتى ..

وفهمت .. ان كلمة « خطيبة » هى لقب قد اعطى لهذه الفتاة بمناسبة تشريفنا ..

ومن مئات السنين لم تعرف سويسرا اديبا واحدا له قيمة عالمية .. ولا مفكرا واحدا بعد جان جاك روسو له اى وزن دولى ..

ان سويسرا ارادت ان تكون منطوية على ساعاتها وعلى أرضها وعلى مقشاتها.. وعلى خلافاتها الثابتة.. وان تغلق عينها عن العالم .. وان كان العالم لايغلق عينه عنها .. ضيقا وحسدا . وان تنطوى على هدوئها وطمأنينتها .. والا تمد يدها لتصافح الا من تعرفه .. وحتى لاتمد يدها فانها حريصة على الا تعرف احدا .. ويكفى ان يعرفها الناس .. وهى تريد أن يعرفها الناس عاصمة النظافة : نظافة الارض والبيت واليد وهى البيئة التى لاينشأ فيها فن ولا أدب . فالادب كالنبات ينمو فى الطين ..

ويبدو ان بعض السويسريين قد استورد كميات كبيرة من الطين تكفى لان ينشأ فيها عملاقان هما : ديرنمات .. وفريش !



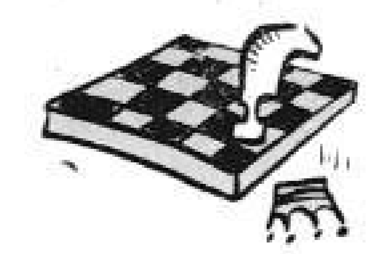
من القاعدة القوية الباردة

الى التطبيق الحار ..

من موسكو ..

الى هافانا !

من الكافيار الى الأناناس وبالعكس



كش ملك .. دائما !

كان الليل من نوع غريب .. باردا جدا ولكن ليس مظلما تماما .. ولا هواء ولا مطر .. ولكن برودة من طين .. أو طين بارد .. والناس اشباح .. اجسام سوداء ضخمة تروح وتجيء بسرعة ودون أن تصطدم بأحد .. وطبعا دون أن يتساند أحد على أحد .. أو يسقط أحد على الارض كما حدث لى مرتين وانا اتجه من لوكاندة اوكرانيا الى الميدان الاحمر الشهير .. ومن المؤكد انني فى هذه الساعة من الليل وفى هذه الدورة والظلام والسرعة ، لن أرى الميدان احمر .. ولن أرى الميدان .. ولكنها فكرة خطرت لى قبل ان أتأكد من غرفتى ان أذهب الى الميدان الاحمر .. لاشاهد الكرملين الذى رأيت صوره وقرأت عنه ، ولم أره ليلا وان أراه نهارا .. فهمت احداث التاريخ الحديث كلها .. فمن هنا خرجت أكبر ثورة عرفها الانسان فى القرن العشرين ..

الفندق دافء .. والناس كثيرون ومن هيئات مختلفة أو من كل الهيئات .. والمشرفات على الفندق سيدات كبيرات فى السن .. وشيء من الصمت يربط الناس بعضهم البعض.. وربما كان سبب الصمت أن احدا لا يعرف لغة أحد .. أو لا داعى للكلام .. كان الناس قالوا كل ما عندهم وجاءوا هنا ليبتلعوا السنتهم أو ليغسلوها أو ليقطعوها أو يستبدلوها .. صمت .. حاولت أنا شخصيا أن اقول .. ولكن لم أجد ما أقوله .. ما الذى اريده ؟ لا شيء .. ما الذى احتاجه ؟ لا شيء .. ولمن أقول ؟ لا أحد .. اذن فالصمت سلوك طبيعى ..

الباب ضخم .. المدخل ضخم .. كل شيء كبير وغليظ وعريض وطويل ..

واتجهت الى اليسار .. الى يسار الفندق .. وليس كل شيء

هنا يتجه الى اليسار فقط .. طبعا لا . فهنا يمين ويسار والناس لهم أيضا يمين ويسار .. ولكن اليسار فى الفكر ..

والناس يروحون بخفة .. غريبة . واتزان غريب . وقد ارتدوا شيئا من الفراء على الرأس .. وأحذية غليظة وتغطوا بالبالطو .. احتاطوا تماما للشتاء .. ولكنه ليس شتاء عندهم .. انه يوم من أيام السنة الدائمة الشتاء .. والارض من الطين .. ولا بد أن الضحكات التى تتعالى ورائى وأمامى بسبب أناس سقطوا على الارض .. مثلى .. انهم لم يعتادوا على المشى فى شوارع موسكو المطينة .. لا هم اعتادوا .. ولا حتى هذه الاحذية التى يلبسونها أحذية .. انها مثل الجوارب .. رقيقة .. ولا تمنع تسرب الماء .. أما البرودة فقد تسللت واستقرت فى العظام .. وأفقدتنى الاحساس بالبرد .. ولو أمسك انسان سكينا وقطع أنفى فلن أشعر .. ولو قطع أذنى فلن أشعر .. ولكن من المؤكد انه لو قطع لسانى فسوف أصرخ .. لان لسانى فى فمى .. وفمى دافء .. أى أن أعصابى متنبهة ..

ولا أعرف ان كان الروس يضحكون لهذه الالعاب البهلوانية التى نقوم بها فى الشوارع .. أو انهم اعتادوا عليها .. أو انهم متحاملون يضحكون فى سرهم .. أو انهم بدأوا يضيقون بها ويفضلون عليها الشقلبية المدروسة ..

ووصلت الى الميدان الاحمر .. من المؤكد أنه ميدان ضخم واسع .. ولكنه ليس أحمر .. وهناك فوق مبنى الكرملين الضخم الذى يبدو مثل شبح هائل توجد نجمة حمراء .. واقتربنا من الميدان .. ومشينا فى الميدان .. واشاروا لنا بأن هذا المبنى هو الكرملين .. وهذا المبنى الى اليسار هو محل «الدوم» اكبر المحلات الاستهلاكية فى موسكو يبيع كل ما يحتاجه المواطن .. وان هنا قبر لينين .. وانه لابد ان نجيء فى ساعة مبكرة من الصباح لنقف فى الطابور ساعة أو ساعتين لنلقى نظرة على صانع الثورة السوفيتية لينين الذى ولد من ٩٩ عاما .. والذى عند ما بلغه أن اخاه قد اعدم لانه تآمر على القيصر أقسم ان ينتقم .. وقد انتقم وانتقم من هذا القيصر ومن عشرات الالوف من القياصرة والحاشية فى روسيا وفى كل العالم !.

بعد ذلك كان لابد أن أعود الى الفندق .. لانه لا شيء يمكن عمله عند منتصف الليل فى موسكو .. لا شيء .. لا المشى فى

الشوارع نزهة .. ولا الذهاب الى المسارح ممكن .. ولا دار الاوبرا .. فهذه اماكن مكدسة ومحجوزة فترات طويلة مقدما .. ولا بد من تدبير وترتيب ٠٠ ولا يمكن الذهاب الى أى مكان آخر ٠٠ ما دام الانسان غير قادر على الرؤية ٠٠ فلا معنى لشىء ٠٠ اذن لابد من العودة الى الفندق ٠٠ ولا بد من النوم ٠٠

الفندق كبير وليست له مزايا خاصة .. انه فندق أوربى .. فيه تدفئة واضحة .. وفى الغرفة راديو يطلق علينا الموسيقى .. وربما نشرات الاخبار ٠٠ لا تعرف ٠٠ فكل شىء بالروسى ٠٠ ومن نافذة الغرفة يمكن رؤية الشارع أوضح ٠٠ هناك أضواء ٠٠ وهناك كناسون ـ أو على الاصح كناسات ـ وهناك جهود عضلية لتكديس الثلج او الطين على جانب من الشارع .. وتجىء عربات تحمل الطين أو الثلج وتنقله الى مكان لا نعرفه ٠٠ وهذه العملية لا تتوقف لا ليلا ولا نهارا ٠٠ والروس يفضلون الجليد على هذا الوحل ٠٠ فالجليد أنظف ٠٠ ومعهم حق ٠٠

وفى الصباح بدا كل شىء واضحا ٠٠

الشوارع واسعة جدا ٠٠ والطين الجاف أو الجليد المتسخ على جانب الشارع .. والملابس القاتمة القصيرة الفخمة تطل منها وجوه شقراء متوردة ٠٠ والعربات تروح وتجىء ٠٠ والسيارات والناس ٠٠ أو الناس كالسيارات ٠٠ أو السيارات كالناس ٠٠ كل شىء يتحرك لهدف ٠٠ متجه ٠٠ منطلق ٠٠ فلا مجال للتسكع الذى هو متعة فى كل العواصم الاوربية الاخرى ٠٠

والافطار يجب أن نتناوله فى المطعم ٠٠

ويجب أن نخلع البالطو وان تقدم لحارس البلاطى سيجارا أو سيجارة يشكرك عليها بحماس ولهفة واضحة .. وفى المطعم يجب أن تقدم البونات .. فكل واحد معه عدد من البونات للافطار والغداء والعشاء ٠٠ وأجمل ما يمكنك ان تتناوله فى الصباح هو كوب اللبن ٠٠ انه لبن دسم ٠٠ أما القهوة او الشاى أو البيض والزبدة فهى كلها اطعمة عادية .. والخبز هنا ابيض واسود . الاسود الذ

وأمام الفندق تجمعنا ٠٠ وفى اتوبيس ركبنا ٠٠ والى مترجمة تتحدث العربية ـ أو نوعا منها ـ أعطينا آذاننا لتسمع منها القليل جدا عن العاصمة موسكو ٠٠ فلسنا فى حاجة الى ان نعرف منها

الكثير ، لاننا نعرف الكثير عن موسكو وعن روسيا وعن الشعب السوفيتى ٠٠ وكل ما ينقصنا هو بعض المعلومات عن المعالم المحددة ٠٠ مثل تمثال من هذا ٠٠ انه تمثال الشاعر الافريقى الاصل بوشكين أو شارع جوركى ٠٠ وجوركى اسم قد اطلق على كثير من الشوارع والمتاحف والمكتبات ٠٠

وأروع ما رأيناه فى موسكو هو متحف الرحلات الفضائية ٠٠ ان هناك تماثيل لتخليد يوم اطلاق أول سفينة فضاء الى العالم الخارجى ٠٠ يوم ٤ اكتوبر سنة ١٩٥٧ وكان اول قمر صناعى روسى اسمه « اسبوتنك » ٠٠ وكان وزنه ١٨٤ رطلا وقطره ٢٢ بوصة وينطلق بسرعة ١٨ ألف ميل ويقطع مداره حول الارض فى ٩٦ دقيقة واقصى ارتفاع له ٥٦٠ ميلا وأقرب ارتفاع له ١٢٥ ميلا. وقد احترق هذا القمر الصناعى يوم ٤ يناير سنة ١٩٥٨ ٠٠

وفى الفندق تباع نماذج لهذا القمر وتطلق صوتا مشابها للصوت الذى كان يبعث به الى الارض من الفضاء الخارجى .. ورأيت له نموذجا فى المعرض الدولى ببروكسل ٠٠ وفى متحف الرحلات الفضائية بموسكو توجد نماذج لهذا القمر .. والقمر الذى انطلق به جاجارين ٠٠ وسفن أخرى كثيرة ٠٠

ومن الواضح ان هذه السفن ليست كبيرة .. انه سجن علمى ضيق..ولكن المشكلة والصعوبة هى أن هذه السفينة كلما زاد حجمها ووزنها احتاجت الى قوة صاروخية هائلة لدفعها بعيدا عن جاذبية الارض ٠٠ ثم اعادتها الى الارض سالمة ٠٠ والنظريات العلمية لارسال واستعادة سفن الفضاء موجودة عند الروس والامريكان ٠٠ ولكن الروس تقدموا على الامريكان فى صناعة الصواريخ وفى مادة الوقود ٠٠ ولذلك فالروس يطلقون احجاما أكبر وأوزانا أثقل ٠٠

ومنظر سفن الفضاء لا يهزك ولا يبهرك ٠٠ لان الانسان لا يفهم شيئا من هذا الذى أمامه ٠٠ فهى براميل دائرية وتخرج منها بعض الاسلاك ٠٠ ومن المؤكد أن الروس ـ وهذا طبيعى ـ قد جردوا هذه السفن من كل ما يكشف عن الاجهزة العلمية المعقدة التى بها . فهى سر ٠٠ ولا أعرف ان كانوا فى امريكا يعرضون سفن فضائهم فى أى معرض ٠٠ ولكنها أسرار ٠٠ وحرب معلومات ٠٠ ولا بد أن هناك زوارا آخرين أكثر فهما وعلما ٠٠ وواضح أن التراجمة الذين يفرجوننا على هذه الاختراعات الروسية يدركون أننا لا نفهم منها

شيئا ... وهذا هو سر عدم الحماس فى الشرح .. فلا يمكن أن يقال انهم تعبوا من الكلام فنحن ما نزال فى ساعة مبكرة .. ومن الخير أنهم فعلوا ذلك فنحن لا نفهم شيئا من هذه العمليات العلمية الباهرة ...

وفى الفندق أخيرا وجدنا شيئا نضحك له .. ولكن ضحك بحساب وبرفق . فقد التفتت المترجمة الروسية تقول : غدا نلتقى فى صحن الدار فى الساعة التاسعة !

قالتها باللغة العربية طبعا .. ومعنى هذه الجملة : غدا نلتقى فى بهو الفندق فى الساعة التاسعة . وحاولت ان أفهمها ان « صحن » هذه كلمة لم يعد أحد يستخدمها .. وان الدار أفضل منها كلمة الفندق . ولكنها أصرت على الدار وعلى الصحن ..

وعرفت بعد ذلك أن لغتها العربية من نوع خاص فعندها كلمة واحدة فقط لكل شىء : فمثلا : النافذة .. عندها هذه الكلمة فقط .. فاذا قلت لها : الشباك لا تعرف معنى هذه الكلمة ..

وفى صحن الدار فى اليوم التالى التقينا .. وركبنا الاتوبيس الساخن ودار بنا فى شوارع موسكو .. وأهم ما رأينا هو محطة المترو .. انها أجمل وأعظم محطة مترو فى العالم كله .. فى غاية الفخامة .. ومن المؤكد أن الروس يعتزون بها .. ومن النادر أن يصورفيلم فىموسكو لاتظهرفيه هذهالمحطة.. جميلة وانيقةوضخمة وتكاليفها لا يمكن حصرها .. الرخام والتحف الكريستال .. وعربات المترو .. والمصاعد والسجاجيد ..تحفة معمارية هندسية لا نظير لها ..

وفى الليل ذهبت الى السيرك ..

واكتشفت اننى وقعت فى خطأ فظيع.. فقد ارتديت جاكتة فوق بلوفر فوق بلوفر .. وفوق الجميع بالطو .. وعلى الرغم من أن الناس حولى قد خلعوا البلاطى وتركوها فى أماكنها الخاصة قبل الجلوس فى أماكنهم ، فانه من الضرورى أن احتفظ بالبالطو لاننى من غير كرافته . ولا بد من البدلة والكرافتة فى المسرح والسينما والاوبرا وأى مكان يذهب اليه الانسان .. ولذلك تسترت بالبالطو على هذه الغلطة الفظيعة ..

ومثل هذه الغلطة يقع فيها كثيرون من الناس فى القاهرة ..

فيذهبون الى حفلات السفارة السوفيتية والدول الاشتراكية بالقميص والبنطلون او ببدل من غير كرافتة.. ولكنهم يجدون الدبلوماسيين الاشتراكيين فى غاية الاناقة .. وبالكرافتة .. لانه لا علاقة للبهدلة بالاشتراكية القائمة على العلم وعلى النظام وعلى المظهر الحسن .. الذى هو أحسن دعاية للمجتمع المخطط .. للمجتمع العلمى .. وليس المجتمع المبهدل المختل من العلم ومن التنظيم !

والروس قد برعوا فى كل فنون الرقص الاستعراضى .. وفى رقص الباليه .. والباليه الروسى هو سيد الباليه فى العالم .. وقد رأيت فى القاهرة الراقصة العظيمة تمارا تومانوفا .. واولانوفا .. وليبشنسكايا .. وغيرهن ..

وعلى الرغم من المظهر المتجهم الذى يبدو عليه الروس فىالشوارع ـ أنا لم أرهم الا فى الشوارع ـ فانهم فى الملاهى يضحكون من كل قلوبهم .. ككل الناس ..

ويبدو أن روسيا بعد خروتشيف قد بحبحت عن نفسها قليلا.. وقد ذابت هذه الجهامة ومعها الجليد .. ومعهاذلك الطابع القاسى الذى يتسم به الروس او الذى التصق فى أذهاننا عن الروس الى حد ما !

وفى المطاراستمعت الى الموسيقى الامريكيةالحديثة : روكاندروك .. تشا تشا .. والتويست .. أيضا .. وقد أدهشنا ذلك .. وادهشنا اكثر أن معظم البائعات فى المطار يحرصن على البيع ويتنافسن .. وفهمنا ان كل واحدة لها عمولة على البيع ..

وقد حاول أحد الاصدقاء ان يشترى بشرط .. وكان الشرط هو أن يلتقى بالفتاة يوما ما وفى مكان ما .. وأمسكت به وقلت له : هل تريد بدولار واحد أن تستغل مبدأ الحافز الفردى الذى نادى به ليبرمان أسوأ استغلال .. بدولار واحد .. ومن أول فتاة ومن أول لحظة ..

وكانت نكتة الرحلة كلها ..

وفى الفندق تعشينا ورأينا شباب موسكو يرقصونالتويست.. وصفقنا طويلا للشبان .. ولا أعرف بالضبط ما الذى صفقت له .. هل لانهم يرقصون رقصا أمريكيا .. ومعنى ذلك ان الفن للجميع .. وانه لا يوجد رقص أمريكى ورقص روسى .. هل أريد أن

اشجع هؤلاء الشبان وغيرهم من الشبان على الرقص .. اى رقص هل المفاجأة أدهشتني .. وأنا اصفق لمن اذاب الجليد بين الاعداء .. الامريكان والروس .. هل أصفق لحيبتى لانني نسيت ان ألبس الكرافتة وظللت الوحيد الذى خلع البالطو وزرر الجاكتة ورفع ياقتها الى أعلى حول العنق .. هل لانهم فعلا فى حاجة الى تشجيع لان الرقص الذى أراه ليس انسيابيا .. انه عنيف .. انه عملية اقتلاع فتاة والقاؤها على الارض ثم العدول عن ذلك فى آخر لحظة .. ربما كان ذلك .. أو كان اى شيء .. او كان الطعام اللذيذ الذى تناولناه على مائدة فخمة ضخمة .. اريقت فيها الوف الاكواب من الفودكا ومئات العلب من الكافيار .. وكان ذلك أول الاحساس الحقيقى بأن هذه هى موسكو ..

كانت ساعات جميلة ولذيذة وفيها تصفيق كثير ليس له معنى واضح .. وفيها مصافحات شديدة وعديدة باليد ..

ولم يكن امامنا وقت طويل نضيعه أو نقضيه فى ليل موسكو او فى نهارها .. فلا بد أن نعود الى المطار .. ومن المطار نستقل الطائرة الضخمة الى كوبا حيث يعقد مؤتمر القارات الثلاث .. ونحن بعض وفوده المسافرة من القاهرة ..

الطائرة ضخمة ومرتفعة جدا .. وذات ثمانية محركات .. المحركات مزدوجة .. اثنين .. اثنين .. ويتحركان فى اتجاهين متعاكسين .. لماذا ؟ نظرية علمية تقول بان هذا اذا حدث ازدادت قوة الاندفاع .. لم أسال أحدا عن هذه النظرية ولم افكر فى كيفية تطبيقها ...

الطائرة من الداخل كالسفينة .. مقاعد مرتفعة ومقاعد منخفضة .. وعلى الجوانب من الامام غرف طاقم الطائرة .. وفى كل مكان لوحة شطرنج .. انها لعبة الروس .. ولماذا اختاروها لا اعرف .. هل لانها نوع من التكتيك الصامت المتجهم .. هل لانها لعبة تنتهى عادة بمقتل الملك .. يجوز وهم متفوقون فيها أيضا ..

وفى جو ملبد بالسحاب .. وفيه عواصف باردة .. أو برد عاصف اتجهنا الى الطائرة .. أما حقائبنا فمن المألوف اننا لانعرف عنها اى شيء .. انها تدخل وتخرج وتنتقل الى الفندق دون ان نعرف عنها شيئا . وليس من الضرورى ان نعرف .. لانه لاخوف على ذلك .. فهى تتعرض لاجراءات أمن دقيقة . وليس من شانك ان تعرف ماذا

جرى لها .. فصيانة البلاد من شان اناس آخرين مدربين وعارفين وفى غاية اليقظة .. « بس اركب انت .. اركب ! » ..

سمعتها من ورائى .. وركبت . وجلست الى جوار النافذة . ولم اعرف من احد كم من الوقت تستغرق هذه الرحلة الى .. الى لا اعرف الى اين ؟

اركب ! ركبت .. اقعد قعدت .. اسكت ! سكت .. «نام» .. لا استطيع .. كل .. اشرب ! .. لا مانع ! العب شطرنج ! ممكن !

وبعد ساعة او ساعتين .. اضيئت انوار الطائرة .. وجاءت صوانى الاكل .. لحم وكافيار .. وخبز وسلطة وزبدة .. ولست متاكدا فى هذه اللحظة ان كان الذى قدم لنا الاكل رجالا او نساء .. فالطائرة ضخمة ولا تهتز .. ولا احد يرى اى شيء من النافذة .. ولا يسمع اى شيء .. ولا أحد يقول لك اى كلام .. والحقيقة انه لاضرورة لاى كلام . فما الذى يمكن ان يقال لك .. نحن متجهون الى القطب الشمالى . وليلا . فلا شيء يمكن ان يقال ..

واحسسنا بأن الطائرة تهبط .. هكذا دون ان يلفت نظرك أحد .. ويبدو ان صناعة الطائرات متقدمة فى روسيا جدا .. فهى وسيلتها الوحيدة الى الانتقال فى اراضيها الشاسعة ..

ومن النافذة تنظر الى لاشيء .. لاشيء يمكن رؤيته .. انه سواد .. او بياض .. اولوان رمادية شاسعة واسعة لا اول لها ولاآخر .. وهبطت الطائرة . ومن النافذة لاترى اى شيء .. وان كانت الارض بيضاء ثلجية .. وهناك مصابيح تعكس صورة لبيت صغيرة .. او مطار صغير .. أو أى شيء صغير ..

وانفتح باب الطائرة . ونزلنا . وكانت درجة الحرارة عشرين تحت الصفر .. وهذا الرقم لايمكن ان يكون له اى معنى أو دلالة عندك الا اذا ذهبت الى هذه المناطق من العالم .. وخرجت براسى وفقدت الاحساس فورا براسى .. ان شيئا ابيض قاطعا قد فصلها عنى فى نفس اللحظة التى اخرجتها من باب الطائرة .. ونزلت اترنح بلاراس .. فلم اعتد بعد ان اكون مقطوع الرقبة .. ولمحت عند نهاية السلم رجلا روسيا عارى الوجه وقف ينتظرنا .. والغريب انه يضحك .. ياخبر .. هذه أول ضحكة فى منتصف الليل وفى القطب الشمالى وتحت الصفر بعشرين درجة .. وقد ذكرتنى بضحكة أخرى تشرفت بها فى هوليوود عندما قابلت مارلين مونرو .. وهى قطعة من

الثلج المخلوط بالنبيذ وقد انتظرتها ساعات ولم تظهر الا دقيقة لتقول لي : ازيك يا انت .. وهنا انخفضت درجة حرارتي الى عشرين تحت الصفر !

وفي داخل المطار الصغير كان كل شيء دافئا جدا .. من اين اتوا بهذا الدفء .. وفي كل مكان لوحات للشطرنج .. ويبدو انها اللعبة الوحيدة التي يعصر فيها الانسان نفسه .. ويتآمر على الملك بصورة عسكرية صامته ..

وجاءت مديرة الاستراحة وقدمت لنا الشاي .. وكان الشاي خفيفا . وحاولنا أن نشتري منها شيئا ولكنها أصرت على ان البيع بالعملات الصعبة .. وحاولنا عن طريق مترجم ان نقول لها : اننا ضيوف .. وعابرو سبيل — على الرغم من انه لم يكن هناك سبيل — ولكنها اصرت وبشدة ونهائيا : بالعملات الصعبة فقط !

وهذا معناه ان هذا المطار مكان سياحي .. ؟

سياحي وفي القطب الشمالي ؟ يجوز فنحن لسنا رواد القطب الشمالي .. ولا رواد الطريق الوحيد بين موسكو وكوبا .. فكوبا معزولة تماما عن امريكا اللاتينية . ولا سبيل الى الوصول اليها من امريكا التي تبعد عنها ٢٥٠ ميلا الا عن طريق اوروبا .. اي الا عن طريق الوف الاميال .. فلابد ان يكون هذا المطار الصغير الدافىء الذي اقيم حديثا مكانا سياحيا هاما !

وقد تصورت ان الحصول على كوب من الشاي بعد ذلك امر صعب فشربت كوبا آخر .. وقد اعدت هذه السيدة كل شيء لاستقبالنا .. الشاي .. والشاي .. وابتسامة لقاء .. وابتسامة وداع .. وعدنا الى الطائرة .. وحدث بالضبط ماحدث لي قبل ذلك .. عندما اخرجت رأسي من باب المطار .. طارت رأسي .. ومشيت هذه المسافة القصيرة على ارض جليدية نظيفة .. وبعد ان دخلت الطائرة .. تلمست رأسي فوجدته في مكانه .. وظل كذلك الى ان وصلت كوبا .. واعتقد انه بقي في مكانه .. وان كانت تصرفاتي تدل على ان خللا حدث فيه !..

في الطائرة وجدنا شيئا تتسلى به ..

ففي أوقات منظمة تضاء الطائرة ويقدمون لنا كميات كبيرة من الطعام . وكنا نوقظ زملاءنا النائمين .. لكي .. يفطروا أو يتغدوا .. او يتعشوا .. نحن لانعرف فالدنيا ليل دائم ..

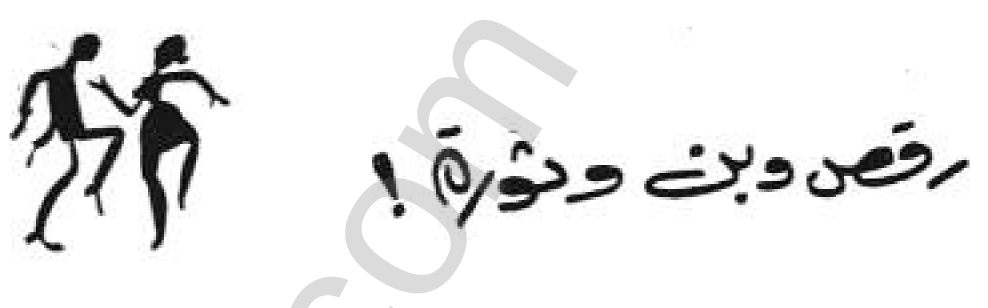
وفي اللحظة التي تجد أمامنا الطعام ننظر من النافذة : لانجد شيئا قد تغير .. فنحن فوق السحاب .. ولا نرى لا شمسا ولا قمرا .. ولكن لابد أن هناك أشياء كثيرة تجري تحت السحاب لانعرفها .. ربما طلعت الشمس .. وتغطت بهذه البطاطين القاتمة من السحب .. لا أحد يعرف ..

وعندما أشرقت الشمس اضيئت الانوار وقيل لنا : طعام العشاء .. وسألت مستخدما بعض الكلمات الروسية القليلة التي عرفتها من القاهرة ودرستها في الطائرة فقيل انه العشاء . نعم العشاء كما سمعتها . وامسح عيني وانظر من النافذة واشير الى قرص الشمس ..

ويكون الجواب : نعم .. ولكنه موعد العشاء في موسكو الآن ..

العشاء في موسكو . وبعد ساعة نتناول الافطار في كوبا .. جميلة جدا هذه اللعبة بعقارب الساعة !

⊙❖⊙



رقص وبن وثورة !

وبالاقتراب

من أمريكا اللاتينيـــــة تقترب من الدفء والضوء والالوان والاشجـار والحـلاوة والمرارة .. وكل الالوان الصارخة في كل شيء ..

والارض كما تبدو من الطائرة لونهـا أحمر .. وقد رأيت هذا اللون قبل ذلك في آسيا .. في الهند وفي أندونيسيا والفلبين .. وفي أستراليا أيضـا .. وهـذه الاشجار الاستوائية أعرفهـا .. وطعمها على لســانى .. وذكرياتها حية في رأسي .. ومجرد رؤية اشجار جوز الهند يحررني من ملابسي .. ويردني الى أصلي .. انسان بدائي عريان .. او انسان قريب الشبه من القرود .. او قرد .. فقد تسلقت هـذه الاشجـار في جزر هاواي .. ونمت عليهـا .. وكدت أغرق عندما كبس على النوم .. وتوهمت أنني على سرير ففردت ذراعي ومددت ساقي .. وغريزة البقـاء وحدها هي التي جعلت يدي على النخلة المنحنيـة على سـطح ماء المحيط الهادى .. ولو سقطت في الماء لغرقت .. لانى لا أعرف السباحة .. وقيل لي بعد ذلك أن الماء يبلغ المترين .. وانه لولا ستر ربنا .. لكنت وكنت .. فالحمد لله على الستر ! ..

وهذه الرطوبة الشديدة في مطار كوبا أعرفهـا .. أحسستهـا على قفاي في جاكرتا .. حيث الرطوبة تصل الى ٨٠ ٪ وأحيـانا الى ١٠٠ ٪ .. وقد التصقت ملابسي من الرطوبة .. ولكن هنـا يوجد دفء .. وتوجد حرارة وحياة .. وهنا ناس .. سمر .. بيض .. رجال ونساء .. وينظرون ويتفرجون .. وهنا اعلام .. ونحن هنا عرسان .. وهذه زفة سياسية .. هنا ينعقد « مؤتمر القـارات الثلاث » لادانة الاستعمار الامريكي الذي يريد أن يخنق كوبا .. وأن يبتلع بلادنا ومنطقتنا كلهـا .. وڤيتنام .. وغيرها

وغيرها .. وكوبا هي هذه الدولة الصغيرة التي تتحدى أكبر دولة في العالم وفي قلب أمريكا وعلى مدى ساعة من طائراتها .. ودقائق من صواريخها .. ومع ذلك لا تستطيع أمريكا أن تقضي على حرية الانسان الصغير في أن يقول : لا .. وان تجعله كلمة «لا» أكبر من أي كبير . واستطاعت كوبا أن تقول لامريكا : لا .. ولا تزال تقولها !

وأحسست أني قريب من الارض .. فعـلا .. هـذه أرض .. وليست سحابا ولا ضبابا .. وهذه سيارة واسعة تنفلت .. وهذه أعلام .. وبيوت جميلة .. وشوارع واسعة .. وهـذه هي أول ارض رآها كولمبوس في سنة ١٤٩٢ عندما جاء يكتشف الهند .. ووصف هذه الارض في مذكراته : بأنها أجمل وأروع لون أخضر رآه في حياته ..

وكوبا جزيرة لها شكل تمسـاح .. وحول هذا التمساح أكثر من ١٦٠٠ جزيرة أخرى صغيرة .. ومساحتها مائة ألف كيلومتر مربع .. أي أن مساحتها أكبر من كل من النمسا والمجر والدنمرك وسويسره وبلجيكا .. وبها أكثر من ٢٠٠ نهر صغير ..

وأقرب الدول اليهـــا هي هايتي ـ على مدى ٧٧ كيـلومترا ـ وجامايكا على مدى ١٤٠ كيلومترا ..

وفلوريدا الامريكيـة على مدى ١٨٠ كيلومترا .. ومن فلوريدا هذه تنطلق طائرات ضخمة يرغمها بعض الركاب على الهبوط في كوبا تحت تهديد مسـدس صغير .. وهذه هي أشهر اللعب التي يتسلى بها أهل كوبا هذه الايام !

وهناك لعبة أخرى هي أن هنـاك سفينة تجسس أمريكية تقف في مواجهـة العـاصمة هافانا .. خارج المياه الاقليمية .. منذ سنوات .. تلتقط الاشـارات الداخـلة والخارجة من كوبا .. والرجعيون الكوبيون يفقدون اعصابهم اذا اختفت هذه السفينة .. وكثيرا ما اطلقت شائعات بأنهـا اختفت فأطل الناس من النوافذ ليتأكدوا .. وليتأكد الواقفون في الشارع أن هؤلاء رجعيون !

لم أشعر بغرابة في هافانا ..

هذه الارض كأني رأيتها . هؤلاء الناس كأني أعرفهم .. هذه الاشجار .. هذا الزحام .. تمنيت أن أبقى شهرا أو شهرين لو كنت أستطيع ..

وكان مقرنا هو فندق هيلتون الذى تغير اسمه وأصبح « هابانا الحرة » ـ أى هافانا الحرة .. والفاء ينطقونها هنا باء ..

وهذه أول مرة أنزل فى فندق هيلتون فى أى مكان فى العالم .. والفندق كان مقفلا وفتحه الكوبيون لاستيعاب هذا العدد الهائل من أعضاء الوفود القادمة من القارات الثلاث : آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية .. وهناك فندق آخر فخم جدا قد أعد لاستقبال بقية الاعضاء الوفود ..

ومن أول لحظة تحس أن كل شىء فى هافانا قد أعد للحفاوة السخية بأعضاء الوفود .. ففى استطاعتك أن تدخل أى مكان .. أى محل .. أى مسرح .. أى سينما .. كل شىء قد أعد لك ويعرفك وينتظرك .. وكل الناس الذين حولك شبان .. لأن كوبا شابة .. ورئيسها كاسترو شاب أيضا .. وأخوه شاب .. وجيفارا زميله فى الكفاح شاب .. كان شابا .. والذين تراهم من الشبان والشابات تلاميذ فى مدارس أو جامعات .. أو موظفون صغار .. كلهم جاءوا ليخدموك .. كل ما تريد .. حتى الفندق تستطيع أن تمسح حذاءك وتحلق شعرك على حساب الدولة ..

وكل شىء منظم ودقيق .. المطبوعات والمنشورات والصور ..

حتى عندما جلست مع الأديب الإيطالى البرتو مورافيا وزوجته الأديبة داتشيا ماريانى وطلبت التقاط عدد من الصور لنا .. أخذت الصور وطبعت وأرسلت وبسرعة ومع الشكر الجزيل لك .. وعندما ذهبت الى البيت الذى كان يسكنه الأديب الأمريكى همنجواى رافقنى أحد المصورين .. والتقطت ما أردت من الصور .. وطبعها وقدمها لى .. فى غاية الدقة والرقة والسرعة ..

وإذا كانت هناك ملاحظات سريعة على مدينة هافانا فهى أن المدينة نظيفة جدا .. والمحلات نظيفة .. والبيوت والفلل والقصور والمرافق فى غاية الجمال .. كل هذه البيوت كان يملكها ويسكنها الأمريكان .. ان هافانا كانت مدينة الملذات .. فكل أمريكى غنى له شقة .. أو قصر .. وليس أسهل من أن يركب طائرته ومعه صديقة أو يتجه الى صديقة .. ويختفى ساعتين أو ثلاثا فى هافانا ثم يعود الى مكتبه فى أمريكا ..

هكذا عاشت هافانا « جرسونيرة » لأمريكا .. ويمكن أن يقال كل كوبا ..

فكوبا التى تبيع السكر كأنها مصابة بمرض السكر .. فهى لا تذوقه .. محرم عليها .. فالأمريكان يزرعونه ويقلعونه ويقطعونه ويصنعونه ويصدرونه بالأسعار التى تعجبهم والشعب الكوبى يتفرج على العلم الحديث الذى يحول القصب الى سكر يذوقه كل الناس الا الذين زرعوه !

والدخان يصنعه الأمريكان ويبيعونه فى كل عواصم الدنيا .. والبن .. والأناناس .. وجوز الهند .. كل شىء تحتكره أمريكا .. والشعب متهدم متململ .. والخونة على رؤوس الحكومات يساومون ويبيعون البلاد .. كل هذه الملايين السبعة لا تملك من أمر بلادها شيئا ..

وظلت كوبا حتى أول يناير سنة ١٩٥٩ مزرعة أمريكية ..

أما ثورة كاسترو فهى التى أطاحت بالرجعية والاقطاع وبالنفوذ الأمريكى فى كوبا .. ولا يزال يهددها .. وبعد ذلك مؤتمر القارات الثلاث ليس الا اتفاقا دوليا على تصدير الثورات الى الخارج .. وما كان يفعله الزعيم جيفارا ليس الا محاولة لتشجيع الثورات الداخلية على أن يكون لها دور .. واذا كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد اغتالت جيفارا وتحاول أن تغتال كاسترو ، فان كوبا ما تزال نموذجا رائعا لصلابة الضعيف صاحب المبدأ فى مواجهة القوى الغاشم !

وكل شىء حلو فى كوبا .. فهى بلاد السكر .. حتى القهوة لا يشربونها سادة ولا سكر شوية .. انهم يخلطون البن بالسكر .. ومن ضمن المشاكل الصغيرة كل يوم أن أطلب فنجان قهوة سادة .. هذا غير ممكن ! وقد اعتدت أن أشربها سكر زيادة .. والأناناس هنا أجمل من أناناس كثير من البلاد الآسيوية .. وهنا البابايا التى تشبه الشمام وهى لذيذة الطعم .. والفواكه كثيرة سواء على مائدة الطعام أو فى السلال الأنيقة التى يضعونها كل يوم فى الغرفة .. وهنا يشربون نوعا من « الروم » اسمه الباكاردى .. ويقال انه أحسن أنواع الخمور فى العالم ..

والذى عرفناه بعد ذلك يؤكد لنا مدى التضحية الهائلة التى بذلها الشعب الكوبى من أجل نجاح هذا المؤتمر .. فالشعب لا يجد كل هذا الطعام الذى تجده .. انه يضحى به من أجلنا .. ولا كل

هذا الارز انه يعطينا ما زاد عن حاجته .. ولا كل هذه السجائر .. والسيجارات ولا علب الكبريت المصنوعة في المكسيك .. ولا زجاجات الكوكا المصنوعة في أسبانيا .. ولا الولاعات الصغيرة المصنوعة في اليابان .. ولا هذه الحقائب الجلدية المصنوعة في أوربا .. ان الشعب الكوبي شعب مثالي .. أراد أن يضرب أحسن الامثلة لأسمى المبادئ : مبادئ حق تقرير الشعوب لمصيرها !

ولم تخف الصحف الكوبية ذلك . فقد قرأت ان ولايات كوبية تعلن - بكل سعادة - تنازلها عن نصيبها من الارز لاعضاء الوفود - منتهى الايثار والتضحية ! - .

وفى مايو سنة ١٩٦١ أعلن كاسترو موقفه بوضوح وشجاعة وبصورة قاطعة : انه ماركسي لينيني .. وانه وشعبه سيتحملان نتيجة هذا القرار . وكان من نتيجة هذا القرار سياسة التجويع . التي فرضتها امريكا عليه .. والحصار الاقتصادي والسياسي والعسكري على الجزيرة الكوبية ..

وفى اكتوبر من العام التالي التقطت الطائرات الامريكية صورا لصواريخ سوفيتية فى كوبا .. واعلن الرئيس جون كينيدي فرض الحصار على كوبا والتفتيش الجوي لكل السفن الداخلة والخارجة منها .. ومنع دخول اي سلاح الى كوبا .. وكانت ازمة عالمية ادت الى ان يسحب خروتشيف الصواريخ من كوبا .. وكان شجاعة من كنيدي أن يهدد .. وكانت حكمة من خروتشيف ان ينسحب .. ولم تقع حرب عالمية ثالثة ..

ولا داعي لان يكون هناك كل هذه الاسلحة فى كوبا .. فامريكا لا تستطيع ان تهاجمها وان تغزوها رغم محاولاتها الكثيرة ، فأمريكا لها مواقع حساسة .. أو اكثر حساسية وكلها واقعة تحت رحمة السوفيت فى اوروبا .. وفى آسيا .. وفى البحر الابيض .. ولايمكن ان تغامر امريكا بغزو كوبا دون ان تتعرض لمواقف اكثر حرجا فى اماكن اخرى من العالم ..

واحساس الكوبيين بأنهم امريكان لاتين يجعلهم يكرهون انهم امريكان .. وكلمة امريكي اهانة لا تغتفر .. واغانيهم الصغيرة الحماسية تردد ذلك .. وتتوعد بذلك .. فهناك اغنية تقول : فيديل .. فيديل .. اكيد سوف يعطيهم علقة ..

فيديل - أي فيديل كاسترو .. واي مواطن ينادي كاسترو باسمه الصغير - أن سوف يعطي الامريكان علقة .. وقد اعطاهم علقة لانظير لها فى التاريخ .. انه الصغير الذى وضع انف الكبير فى الطين .. وجعله عاجزا عن الانتقام .. وكوبا فى امريكا تشبه البانيا فى اوروبا .. واسرائيل فى الشرق الاوسط انها جميعا ركائز قوية لروسيا والصين وامريكا ..

واذا كان الروس يرقصون التويست . ويجدون فى ذلك نوعا من المرونة وتوسيع الافق او نوعا من الاعتراف بعالمية الفن ، فان الكوبيين لايرقصون التويست .. وانما يرقصون رقصة مشابهة لها تماما اسمها « الموزمبيق » وهذه الرقصة قد ابتدع خطواتها كوبي زنجي اسمه بابيلو الافريقي .. والكوبيون من اقدر الشعوب الامريكية على الرقص .. ومن أجمل المتع فى الدنيا ان تتفرج عليهم وهم يرقصون رجالا ونساء .. ان الموسيقى هى دمهم .. والرقص هو نشاطهم اليومي .. حتى كاسترو .. فنحن عندما ذهبنا نوقد شعلة التضامن الاسيوي الافريقي . وكان ذلك ليلا .. وكان الجو باردا فى قمة احد الجبال .. وكان المطر ينزل علينا .. تماسكت الايدي ورحنا نغني الاناشيد الكوبية الحماسية البسيطة .. ونرقص رقصة الموزمبيق .. كل الشبان والرجال .. وكاسترو .. مشدودا من ذراعيه الاثنين .. يرقص .. ويغني .. ويظل فى نفس الوقت رشيقا وشابا ثائرا .. اذا خطب اهتزت له الملايين .. وهو لايخطب الا اربع ساعات واحيانا سبع ساعات ويستقبلونه بالتصفيق وقوفا .. وكنا نستمع الى خطبه من راديوهات تترجم كلماته الى ثلاث لغات من بينها اللغة العربية .

وكاسترو رجل بسيط .. فى مظهره .. انه يرتدي الملابس العسكرية الخشنة .. والحذاء الخشن .. ويحمل سلاحه .. ولا يكف عن تدخين السجار الكبير .. وهو ككل لاتيني يحب الخمر .. ويدعو اليها كل صديق .. واي انسان هو صديق له وبسرعة .. ومن الطبيعي ان تكون معبودا للشباب .. وهو ايضا يحب الشباب أن يلتف حوله .. ولا عدد للفتيات الصغيرات اللاتي يدرن فى فلك كاسترو .. وهو رجل اعزب بعد ان هجرته زوجته الى امريكا مع عشيق امريكي .. ومن المؤكد ان هذه الاهانة التى لحقته شخصيا اعمق اثرا من انتصاره الهائل على امريكا .. انه انتصر على امريكا هذا واضح . ولكن انتصار شخص امريكي واحد عليه قد اوجعه اكثر .. !

وقد هربت أخته أيضا الى امريكا .. انها لاتريد مايريد .. ولا يهمها ما يهمه .. انه قائد وهى فتاة عادية .. هو رجل غير عادى .. رجل يصنع التاريخ لبلاده وللقارة اللاتينية ، وهى فتاة تريد ان تعيش بلا تاريخ ولا لقب .. ومهما ذهبت وفعلت فلا وزن لها الا لانها أخت كاسترو !..

والكوبيون هنا خليط من الاسبان ومن الزنوج الافريقيين الذين اتى بهم الاسبان والهولنديون والبرتغاليون رقيقا يزرع الارض .. واختلط البيض بالسود .. ولذلك تجد فى كوبا اناسا بيضا وسمرا وزنوجا .. ولا توجد اية تفرقة لونية عندهم .. والتزاوج ممكن بين هذه الالوان .. أو يحاولون ان يجعلوه ممكنا الى اقصى حد ..

وعندما كنا نذهب الى بيوت الزنوج الفقراء .. ونناقشهم وهم يتفرجون علينا فنقول لهم : نحن افريقيون ..

كانت ملامحهم ترفض ذلك .. فهم سود ونحن بيض .. فالافريقى عندهم هو الزنجى .. هو سجين اللون .. اما نحن فافريقيون جغرافيا فقط .. وكنا نقدرهم . فلا تزال حجتهم اقوى .. هم افريقيون حقيقة . ونحن متفضلون عليهم بهذه الصفة الافريقية . ولايمكن ان يشعر الابيض بعذاب الاسود الذى يرزح تحت فك بارز وشعر مجعد وبشرة فى لون الظلام وقضبان السجون !

ولا اعتقد انى رايت فى حياتى يوما اجمل ولا اروع ولا ابسط من يوم الثورة الكوبية .. كان ذلك يوم راس السنة . ونحن نجلس على منصة أو شرفة عالية فى ميدان كبير .. الانوار والموسيقى .. والموائد ممدودة .. وعلى الموائد كل طعام وكل شراب وكل انواع السجائر وعلى مدى منضدتين منا يجلس كاسترو .. وبعينه الضيقة ذات الاحمرار الحقيقى لمح الزجاجات الموجودة على الموائد المجاورة وطلب تغييرها الى شمبانيا .. وشرب فى صحة كل الشعوب .. والتضامن والشعب الكوبى .. اما الشعب الكوبى فقد افترش الميدان .. ففى الميدان موائد ومقاعد .. وطعام وزجاجات البيرة لاعدد لها .. وسندوتشات اللحوم .. والفاكهة .. مئات الالوف من الناس .. يأكلون ويضحكون .. واهم من ذلك يرقصون ..

لقد رايت عيد الثورة الفرنسية فى باريس مرتين . . ومشيت فى الشوارع ازاحم الناس .. ودخلت الى المقاهى ازاحم الناس .. واتجهت الى الميادين افسح لى مكانا .. وضحكت .. ورقصت ..

وملأت نفسى بسعادة الفرحة بالحرية .. وتفاديت ان ادوس السكارى على الارض .. وحرصت على الا القى بنفسى بين اثنين يتعانقان .. والا ادق بابا غير بابى وان اضع المخدات فوق راسى عندما اعود الى فراشى حتى اخطف ساعة من النوم وسط الصرخات والقبلات والعبارات المخمورة فى الغرف المجاورة وعلى السلالم وفى الاسانسير .. وتصورت يوم كنت فى باريس انه ليس اروع من ١٤ يوليو فى باريس .. ولكن فى هافانا كان أروع وأبسط وأجمل .. انت مع كل الناس .. لا أحد يعرفك ولا انت تعرف احدا .. ولكن مد يدك الى اى انسان تعود يده معك .. مد ذراعيك وبمتلىء حضنك .. بل شفتيك والقبلات تطير من كل مكان .. انت واحد من مليون .. والفرحة توزع بالعدل بين الناس ..

وليلة اخرى فى مدينة سان فويجو فى مقاطعة اورينت فى كوبا ايضا .. فى تلك الليلة اقيمت المهرجانات الموسيقية والغنائية .. يمكنك أن تقول ان الكوبيين ولدوا ليرقصوا .. او يرقصون منذ ولدوا .. انهم فى غاية الرشاقة والسيولة والليونة .. هذه هى رقصة الموزمبيق .. لم اتعلمها من احد .. ولكن المترجم الذى اسمه : جورجه — اى جورج فهم ينطقون الجيم هاء — يهز فى مكانه وبسهولة وفى جمال .. سحبنى .. انسحبت .. هزنى اهتززت تركنى كلعبة لها زمبلك وظللت ارقص حتى نبهنى الى ان الرقصة تغيرت وانه من الضرورى أن أغير .. تماما كأنى اسطوانة انتهت ويجب ادارتها على الوجه الآخر .. واهتز امامى واهتززت امامه .. وتدخل بيننا عدد من الفتيات .. وليس من الضرورى ان ترقص اذا كانت التى تقف امامك او وراءك فتاة .. دعها هى ترقص وتظاهر انت بالاعجاب بها والفرجة عليها .. وسوف يعذرك الناس لان هذه اعظم تحية واكبر عذر يقبله اللاتين هنا .. ان تعجب بفتاة .. وان تذهب فى اعجابك بها الى الخروج على التقاليد وعلى الذوق !

فمن مئات السنين فعل امير العشاق ذلك .. فدون جوان القى على نفسه جردلا من الماء القذر لكى يضحك معشوقته .. ولما ضحكت .. رفض أن يغسل وجهه .. ولم يعتذر عن هذا الماء الذى اصابه فى نفس الوقت والديها .. انه مشغول بها فقط .. وهذه اعظم تحية !

والاديب العاشق كازانوفا عندما ذهب الى لقاء محبوبته فى بيتها وجدها مريضة . . ولما سألها عن السبب قالت : أكلت طعاما فاسدا ..

فانطلق الى المطبخ يبحث عن الطعام الفاسد .. ايقوقه ويمرض الى جوارها .. ولم يجد الطعام .. فامتنع عن الطعام حتى مرض . وجاءت لزيارته .. ولم يكد يراها حتى قفز من سريره دفعة واحدة وكأنه عفريت خرج من قمقم .. وانهال على يديها يقبلها .. وعندما نظر الى الارض ليعرف ما هذا الشيء الذي يلمع .. لم ينتبه الى ان هذا الذي سحقه بقدمه كان منظار الطبيب الذي سقط على الارض وزجاجات الدواء في يديه والمنظار تحت أقدام الجميع .. ولم يعتذر كازانوف .. فأمام المعشوقة لا عذر ولا اعتذار .. ويكفي ان تكون هناك ليصبح كل شيء جائزا ..

وتصورت في لحظة انني اتفلسف وان الافكار التي تتوارد على راسي هي انطلاقات شاعرية .. ولكن عندما نظرت الى جواري وجدت عجوزا بساق واحدة .. وقد اصرت على ان ترقص .. واختارت شابا صغيرا .. وكانت اروع واسرع منه في الرقص .. ولما اندهشنا لذلك .. قالت العجوز : انني قد تصلبت ويبست في اماكن كثيرة من نفسي وجسمي .. ولم يبق لي الا الرقص .. !

وسألتني . هل ترقص !

قلت : ليتني استطيع .. ان الرقص معك يؤكد عجزي الذي لا حدود له ..

قالت : الشباب هو الذي يرقص .. عندما كنت شابة كنت ارقص طول الليل .. وقد استطعت في ليلة ان ادوخ عشرة من الشبان .. هم تعبوا وانا لم اتعب ..

قلت : وتستطيعين الليلة ايضا !

وضحكت .. وكانت ضحكتها سعيدة .. وسعادتها تدل على ان المراة لاتشبع من المديح ..

وقال لي احد خبراء الرقص الكوبيين .. انه ليس من الضروري ان تكون استاذا في الرقص .. المهم ان تتحرك فقط .. اعط اذنك للموسيقى .. والصوت يقوم بكل العمل في جسمك ..

وادرت هذه العبارة في اذني على كل الاشكال الادبية والسياسية والموسيقية : اعط اذنك .. واترك الصوت يقوم بكل العمل !

واعطيت اذني للموسيقى الصارخة .. والطبول المدوية .. واعطيت عيني للالوان .. امواج من الالوان .. واعطيت انفي .. لا اظن انني اعطيت انفي .. فقد فقدته تماما .. فانا مصاب بزكام شديد .. واعطيت ذراعي واصابعي لكل ماحولي .. فانا احرك المقاعد واتساند على الحواجز الخشبية .. واعطيت فمي لكل الفواكه .. فانا مبذول لكل هذه الفيضانات من المشاعر .. انها تهزني .. وتهدئني .. وتغسلني وتعصرني وتنشرني وتجففني لتكون نفسي اكثر بياضا ..

لقد تركت الاصوات والالوان تقوم بكل العمل ..

وعرفت النوم العميق .. واليقظة النظيفة ..

وسألت احدى المرافقات لنا : انت مخطوبة

فقالت : نعم .

قلت : لمن ؟

قالت : لموظف في وزارة الداخلية ..

قلت : ومتى تتزوجين ؟

قالت : قريبا

قلت : هل هناك صعوبات ؟

قالت : يعني .

قلت : افهم معنى كلمة يعني هذه .. لانها من الكلمات القليلة التي تضايقني .. لان معناها ان هناك صعوبات ولا داعي لذكرها .. او لاداعي لان تعرفها .. او ماشأنك انت يا بارد ..

قالت : كل هذا الذي قلت ..

قلت : تقصدين انه لاداعي لان اسالك .

قالت : لا .. اسال .. وانا من الواجب ان اجيب ..

ولم اسال طبعا .. فقد سدت فمي عبارة «من الواجب ان اجيب» احسست فجاة انها موظفة تقوم بمهمة .. وانها مطالبة بان تكون لطيفة وظريفة .. والا تدلي بكثير من المعلومات .. او بعض المعلومات تكون دولة حساسة .. وتتوقع ان يكون اى انسان عدوا لها .. مع ان الذي كنت اريد ان اعرفه هو بعض العلاقات الاجتماعية والعائلية وكيف تغيرت .. وكيف أقابل بعض المسئولين عن تطوير الاسرة ..

وكيف انتقلت كوبا من الانحلال الى التحرر .. أو كيف انتقلت من التحرر الامريكى الى التحرر الكوبى ايضــــا . . وأين ذهبت هذه الالوف من بنات الليل .. وما الذى يفعله الكوبيون أنفسهم فى هذه الكباريهات الكثيرة جدا الموجودة فى هافانا واريد ان اعرف منها متى بدات تجربة الفتيات اللاتى يقمن بتنظيم المرور فى الشوارع .. انها كانت واحدة منهن .. ولكن لما سمعتها تقول : « انه من الواجب ان تجيب .. » احسست ان هذه الاسئلة الشخصية فوق الواجب، وانها اذا كانت قد راعت الذوق فى كل تصرفاتها ، فلماذا لا أفعل ذلك ؟ وفعلت ذلك وسكت ..

واتجهت الى بائعة سجائر.. وما اكثر السجائر وعلب الكبريت هنا .. ان اكثر اعضــــاء الوفود الذين غيروا عملاتهم فى الســوق السوداء قد عادوا بالوف من علب السجاير الفخمة وعلب كبريت الشمع .. وسألتها :

ــ طبعا من أصل اسبانى ؟

فقالت : هه ــ أى نعم ــ وانت ؟!

قلت : مصرى .. افريقى ..

قالت : هه ــ ومعناها : باه

قلت : لا تصدقين ؟

قالت : هه ــ ومعناها : العب غيرها !

قلت : احلف لك ..

قالت : هه ــ ومعناها : على مامة ؟

قلت : اريد كتابا فى اللغة الاسبانية ..

قلت : هه (مع هزة من كتفها ناحية اليسار .. الذى تصادف انه ناحية الباب الخارجى ولم يكن قصدها ان اخرج بسرعة) ــ ومعناها : لايوجد

وذهبت الى المترجمة ورويت لها ماحدث .. وسألتنى عن الفتاة وعن اوصافها .. ولما عرفت ضحكت جدا وقالت : انها ملكة جمال هافانا .. وهى تتصور انها اجمل واحدة فى كوبا وفى امريكا .. وان اى انسان يتحدث اليها فهو يعاكسها فقط .. وان كلمة « هه » من أهم الكلمات التى تستخدمها وهى معروفة بذلك ويسمونها هنا سينوريتا « هه » ؟ ! ..

وسألتنى : ما الذى كنت تريده منها ؟

قلت : كتابا فى تعلم الاسبانية ..

قالت : هه .. ــ ولم أعرف معنى هذه الكلمة ..

قلت : ماذا تقصدين ؟

قالت : هه ــ أى هذه حيلة .

قلت : والله ابدا حتى اسألى فلانا واشرت الى احد الزملاء ..

وضحكنا .. واندهشت جدا كيف اننى وحدى الذى كنت ابحث عن كتاب وكل هؤلاء الخبثـــاء قد عرفوا بسرعة انها ملكة جمال وذهبوا يداعبونها ..

وقلت للمترجمة : ولكنى لا اراها جميلة ..

قالت : هه ومعناها : اطلع من دول ..

قلت : اقسم لك انها ليست جميلة .

قالت : اسمع !

وسمعت منها ماليس غريبا على عقلى .. فمن المألوف أن يذهب الناس فى معاكسة الفتاة الجميلة فيهاجمونها ويغيظونها ويؤكدون لها انها لاجميلة ولا حاجة .. وهى محاولة لهز ثمار الشجرة .. أو لزعزعة ايمانها بنفســها .. فقد تحب المراة من يكرهها .. أو من يعذبها او من يحتقرها .. أو من يزهد فيها .. او تطارد من يهرب منها .. تماما كما تهرب ممن يطاردها ..

ولم يكن هناك مجال للكلام .. فانا زائر عابر وانا عندى مايشغلنى وهو كثير .. وانا عضو فى اكثر من لجنة .. وعندنا تقارير وكتب .. وعندنا لقاءات مع أدباء واساتذة جامعة .. واعضاء الوفود .. وعندى موعد آخر مع البرتو مورافيا .. الذى تتأكد صداقتى له فى كل مرة ألتقى به .. فى ايطاليا وفى القاهرة وفى المانيا .. وهنا فى كوبا ..

سألته : ما رأيك فى كوبا ؟

قال : تجربة رائعة ..

قلت : هل تكتب عنها ؟ ..

قال : اعتقد ذلك ..

قلت : كتب عنها سارتر وسيمون دى بوفوار ؟

قال : انه يكتب كثيرا ..

قلت : وفرانسواز ساجان ايضا ؟

قال : واعجبك ما كتبته .

قلت : لم يعجبنى من كل ماكتبتـــه غير كتابها الاول : مرحبا ايها الحزن ..

قال : وانت ايضا رايك فيها هكذا .. ان زوجتى من رايك .. اسألها ..

قلت لها : لم يعجبك من مؤلفات ساجان سوى قصتها الاولى ..

قالت : نصف هذه القصة .. وهى لم تضف جديدا لا فى النصف الثانى .. ولا فى بقية القصص الاخرى ..

***

ولم يخل مؤتمر القارات الثلاث الذى كان مرهقــا للاعصاب لمناقشاته الطويلة وخلافاته الحادة حول الزعامة وعلى مكان مركزه الدائم .. وموقف الوفد الصينى .. والوفد السوفيتى .. والوفود الافريقية .. ففى داخل اللجان كانت الترجمة فورية والى لغات اوربية متعـددة .. والى اللغة العربية ايضـا .. فمثلا اصر مندوب اليمن ان يلقى قصيدة طويلة .. وهذا الشاعر ابيض الوجه اخضر العينين قصير القامة .. وذهب الى المنصة واخرج شريطا طويلا من الورق وراح يلقى قصيـدته .. وامسـك الحاضرون السماعات التى يستمعون منها الى الترجمة .. وراحوا يحركونها يمينا وشمالا ويتلفتون حولهم .. واشتركوا فى ابتسامة غامضة .. ثم فى ضحكة عالية .. وراحوا يسألوننا عن هذا الذى يجرى امامهم ولا يفهمونه . ونحن لانجد مانقوله ؟ انه يلقى قصيدة .. ولا يمكن ترجمتها الى اية لغة .. لانها كلام فارغ أولا . ولانها تتـلاعب بالالفاظ .. ومن اهم العابها اللفظية كلمة : كوبا .. فالقصيـدة تقول : جئنا الى كوبا .. ولم نشرب كوبا من المـاء ، وانما شربنا

اكوابا من الكرم والضيافة .. الى آخر مثل هذا الكلام البايخ الذى لايمكن ترجمته ولا داعى لذلك !

ولكن الناس يريدون ان يعرفوا .. ولم يعرفوا لان احدا لم يقل لهم شيئا .. وكل ماقيل لهم : انه من اليمن ..

آه من اليمن .. آه كده .. ــ وترددت مثل هذه الكلمات وكانت ردا .. او مبررا لعدم الرد !

وكان الوفد الصينى عصبيا جدا .. وكان عدده كبيرا .. ولم افهم فى كل ماقرات أو سمعت سببا لهـذه العصبية .. وربما كان السبب هو ان الصينيين اذا راوا الروس احترقت اعصابهم .. وكان الروس هناك دائما وفى منتهى النشاط ..

واذكر ــ مرة واحدة ــ اننى لقيت احد اعضاء الوفد الصينى وحييته او حيانى ولم نقل شيئا . وضحك هو ولم يقل شيئا .. وعاتبنى احد الزملاء : كيف تفعل ذلك .

قلت : وماذا فعلت ؟

قال : الم تسمع ما الذى قاله هذا الرجل فى جلسة الصباح .

قلت : لم اسمع ..

قال : لقد لعن المؤتمر من اوله لآخره ..

قلت : اننى لا اراه قد لعننى بصفة خاصة .. ومع ذلك فما الذى قلته له .. او قاله لى .. لقد حيانى فى صمت .. وحييته فى صمت اكثر .. هو ضحك وهز رأسه .. وانا لاضحكت ولا هززت رأسى

قال : لكن كان عندك استعداد انك تكلمه ..

قلت : ولا يزال عندى استعداد لان اتكلم مع اى احد من كل الذين تراهم امامك ..

قال : يا عم انا ماليش دعوة .

قلت : هه ــ محاولا ان اقلد الفتاة الكوبية بائعة السجائر ..

هه .. وانصرفنا .. كل الى حال سبيله .. ولم يكن لنا سبيل الا حول الفندق وفى المحلات الصينية التى تبيع الاحجار الكريمة وباسعار معتدلة .. خصوصا حجر التراكواز وحجر الجاد الغالى الثمن ..

وانتهت بسرعة خاطفة الرحلة الى كوبا .. من الغرب الى الشرق .. وفى النفس تلك الصورة الجميلة العميقة .. وفى الفم طعم جوز الهند الذى شربناه .. والاناناس الذى التهمناه .. والسجائر التى تعلمت من كاسترو أن أضعها فى فنجان القهوة الى أن يلين أحد طرفيها ثم نكسره بأسناننا .. وقد امتلأت الحقائب بالكتب والمجلات وعلب الكبريت وعلب السجائر وبالعقود والخواتم الصينية والاقمشة الحريرية .. ولا أظن انني رايت القباقيب فى كوبا .. ولكن وجدت ستة ازواج منها فى حقيبة صديق سعودى كان ضمن المؤتمر .. ربما كانت هذه أول صورة للاحذية التى لبسها الاسبان عندما اكتشفوا كوبا .. بعد ان اهتدى اليها البحار الايطالى كولمبوس .. ولم استرح لوجود هذه القباقيب فى الطائرة الا عندما تركها الزميل السعودى فى غرفته فى فندق اوكرانيا بموسكو ونحن فى طريق العودة الى القاهرة ..

وفى غرفتى فى فندق اوكرانيا امسكت قلما وورقة وكتبت :

« عزيزى الرئيس كاسترو » ..

انها بداية تقليدية سخيفة ..

افضل منها : عزيزى فيديل كاسترو ..

أو لاداعى لكلمة كاسترو هذه .. انهم ينادونه بكلمة فيديل ..

اذن أقول : عزيزى فيديل .. تذكر يوم راس السنة يوم عيد ثورتك الشابة المجيدة ونحن نأكل معا .. ونستعير الكثير من سعادتك ونحن نتحدث عن كوبا. هل تذكر انك قدمت لى سيجارا كبيرا جدا .. اكبر من سيجار تشرشل .. انه سيجار كاسترو .. والقيت بما معى من سيجار فى الارض ـ احتقارا لشأنها .. وقلت لى بالحرف الواحد : مادمت مع كاسترو فاشرب هذا السيجار ..

واعطيتنى سيجارا ضخما .

وقلت لك : واذا لم أكن مع كاسترو ..

فقلت انت : يبعث لك كاسترو بالسجائر ..

وقلت انا : واذا لم يبعث كاسترو ..

وقلت انت : يبعث لك كاسترو بأن تجىء لتدخن هذا السيجار معه ..

قلت انا : هذا افضل ..

ومددت يدك وصافحتنى .. وكانت هذه المصافحة تعاقدا واتفاقا بيننا ..

والآن يا ايها العزيز فيديل : انا فى شوق الى سيجارتك .. فما رأيك ؟ .. »

ومزقت الخطاب لان المعنى لايعجبنى .. ولا يريحنى .. ويكفى انني رايت وسمعت وقرات واستمتعت واحتفظت بذكريات جميلة حارة : لبلاد جميلة وشعب حار .. وليس السيجار وقصب السكر والاناناس الا اهون مافيها ..



فهـرس الـكتاب